حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به . العدد الثاني . شهر رمضان ١٤٣٣هـ / آب ٢٠١٢م

٢

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

مرقد الشهيد مسلم بن عقيل عليه السلام سنة ١٩٣٥م

الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة
في القرن الأوّل الهجري
-القسم الأول-

الدّكتور محمّد حسين الزّبيدي
كلية الآداب - جامعة بغداد

مقدمة:

إن الكتاب الذّي بين أيدينا رسالة بعنوان «الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة حتى نهاية الحكم الأموي» تقدمت بها إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة لنيل درجة الماجستير ونوقشت هذه الرّسالة في ١٩٦٤/١٢/١٥ ونالت درجة جيد جداً.

ولقد اخترت هذا الموضوع بحثاً لي لأني وجدت أن معظم كتب التّاريخ الإسلامي اهتمت اهتماماً بالغاً بالجوانب السّياسية لتّاريخنا وأهملت ما سواه.

إنَّ ما كل من يقرأ كتب التّاريخ والسّير والتّراجم التي تعرض للكوفة من قريب أو بعيد، يقف حيال صورة مضطربة المعالم لهذه المدينة منذ نشأتها حتى نهاية الحكم الأموي.

فهذه المراجع لم تعرض للحياة الاجتماعية والاقتصادية التي كان يعيشها أهل هذا البلد في نحو قرن من الزّمان ازدهرت فيه حياة الكوفة اجتماعياً واقتصادياً وفكرياً ولعبت دوراً مهماً جعلتها تصبح عاصمة للخلافة طوال خمس سنوات من حكم الإمام علي، ثم صمَّ مركزاً للتّشيع ومركزاً لدراسة الفقه والنّحو واللغة والفلسفة. كما كانت الكوفة في تلك الفترة قاعدة حربية ترابط فيها الجيوش العربية المقاتلة في العراق.

هذه الجوانب المجهولة من تاريخ الكوفة في القرن الأوّل الهجري، كانت من أخصب الفترات في حياتها وأكثرها تطوراً ونمواً وازدهاراً ليس في تاريخها فحسب ولكن في التّاريخ الإسلامي كله، ذلك أن الكوفة تركز فيها الصّراع بين القيم العربية الإسلامية وبين القيم الفارسية، الذّي كان من نتيجته ظهور تيارات فكرية واتجاهات عقلية ومتباينة أثرت تأثيراً مباشراً في حياة المسلمين.

إن مثل هذه الخطوط المشرفة والإشعاعات المضيئة لم يفصلها المؤرخون لانصرافهم إلى كتابة الحياة السّياسية المضطربة وحدها فلا نكاد نتصفح كتب التّاريخ أو التّراجم أو السّير إلا تطالعنا صورة باهتة المعالم في الكوفة حتى أضحى النّاس لا يذكرونها إلا عرضاً، ولا يتعرفون عليها إلا من خلال ما يذكره المؤرخون عن حكامها كأفراد، وفتنها ومؤامراتها كأحداث سياسية. لقد أعطى المؤرخون القدامى عنايتهم للحكام كأشخاص تفردوا بالسّلطة وتسلموا زمام الملك، وغفلوا الشّعوب ودورها في الحياة وتسييرها عجلة الزّمن، فلا نجدهم يذكرون شيئاً عن حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وما يتصفون به من قيم وأخلاق وإنما أهملوهم إهمالاً تاماً.

فاستقر الرّأي على أن أتصدى لتّاريخ الكوفة في فترة من أهم فترات تاريخها، منذ تأسيسها الأول حتى بيعة أبي العبّاس السّفاح. واخترت الحياة الاجتماعية والاقتصادية موضوعاً لهذا البحث. والحق أن موضوع دراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية بصفة عامة من أخطر الموضوعات وأصعبها، فما بالكَ بالحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة، فالمادة مبعثرة في بطون الكتب، فضلاً عن أن هذه المصادر لم تكن غنية بالمواد الأمر الذّي اضطرني إلى الاعتماد على تلك الأخبار القليلة محاولاً تفسيرها في ضوء التّاريخ العام للدّولة الإسلامية كما أنني كنت أعقد مقارنات عديدة بين الكوفة وغيرها من الأمصار المعاصرة، وبواسطة هذه المقارنات استطعت أن أخلص إلى بعض النّتائج التي تكشف عن حياة الكوفة اقتصادياً واجتماعياً.

ومن المشاكل التي واجهتني وأنا بسبيل إعداد هذه الدّراسة أيضاً ذلك الخلط الذّي كنت أجده في كتب الأنساب التي عرضت لخطط القبائل إذ قلما فرقت بين القبيلة والبطون والأسر، فضلاً عن أنها نادراً ما كانت تحدد مكان نزول هذه القبائل، هل سكنت البصرة أم الكوفة أم انقسمت بين المصريون الأمر الذّي جعل مهمة الباحث في هذه النّاحية صعبة جداً.

كما أن الحفريات الأثرية لا تزال بدائية لم تستكشف ثرى الكوفة فلعله دفن الكثير من معالم المدينة القديمة.

لقد فرضت عليّ طبيعة الموضوع أن أمهد لدّراسة مدينة الكوفة من النّاحية الجغرافية فأحدد موقعها وأوضح نشأتها كمدينة ذات طابع متميز عن باقي مدن العراق في تلك الفترة من ناحية تخطيطها للشّوارع والطّرقات العامة، والبيوت والمنازل والأسوار التي كانت تحدها، وحدودها الخارجية ودار الإمارة وبيت المال والأسواق، وكان هذا الفصل بمثابة الأرض التي بنيت عليها بحثي، وتناولت في (الباب الثّاني) الحياة الاجتماعية في مدينة الكوفة فتحدثت عن طبقة العرب وهي الطّبقة الحاكمة «الطّبقة الارستقراطية» التي انفردت بنظم اجتماعية معينة ونظم إدارية وقفت عندها طويلاً.

وحاولت أعطاء فكرة واضحة عما كان يسود هذه الطّبقة من عادات الزّواج والطّلاق، والوفاة، والجنائز كما درست القبائل العربية التي سكنت الكوفة وحددت مواطنها التي نزلت بها، كما وجدت أن عناصر أخرى غير العناصر العربية سكنت المصر مع العرب جنباً إلى جنب مثل العبيد والموالي فعرضت لهم وحددت علاقتهم بالعرب وعلاقة العرب بهم، ووقفت عند تأثيرهم في المجتمع الكوفي ووضحت الدّور الذّي لعبوه في المجتمع، وعلى نحو ما درست الموالي والعبيد أشرت إلى وجود طبقة رابعة وهي طبقة أهل الذّمة من (اليهود والنصارى) وطبقة خامسة هي السّريان وطبقة سادسة هي النّبط

ولم تكن دراستي لهذه الطّبقات دراسة عرضية بل وقفت عند كل طبقة أعرفها وأحدد خصائصها وأعرض للأدّوار التي لعبتها في حياة المجتمع الكوفي. ولكن ثمّة عادات معينة وتقاليد ثابتة وملامح واضحة في حياة هذا المجتمع كاللهو والمجون والغناء ودور القيان والأعياد، وحلبات الخيل كل هذه المظاهر عقدت لها (الفصل الثّاني) من البحث.

واستشهدت بما ورد في كتب الأدب وما جاء على ألسنة الشّعراء في وصف الدّور والقصور والتّغني بالقيان، وفي قص ما يحدث في دور اللهو والمجون، فإن حياة المجتمع لا يمكن أن تقف بأي حال من الأحوال عند حد الجّد والحرب والمعارك وحدها، ولكن لكل مجتمع وجهان: وجه جد وسياسة وحزم، ووجه آخر هو وقت الفراغ الذّي يزجي في دور اللهو والغناء، وفي حلبات الخيل.

أما الحياة الاقتصادية فقد خصصت لها (الباب الثالث) فعرضت للثروة الزّراعية، وذكرت أشهر الحاصلات وشرحت أنواع الأراضي الزّراعية وبينت الاقطاعات التي سادت في ذلك العصر. كما تعرضت للتّجارة وأفردت لها الفصل الأول من هذا الباب ورأيت أن أقف في بداية هذا الفصل وقفة طويلة عند العوامل المهمة التي ساعدت على أن يكون للتّجارة شان كبير في بلد كالكوفة ثمّ بعد ذلك وقفت عند التّجارة الخارجية مع البلدان الأجنبية وكان لها طريقان: الطّريق البحري والطّريق البري، وكذلك التّجارة الدّاخلية مع البلاد العربية كدمشق والجزيرة ومصر وغيرها، وقدمت تعريفاً بالمراكز التّجارية والأسواق الموجودة في الكوفة وطريقة التّعامل التّجاري للكوفيين مما أسميته بالمعاملات التّجارية (الصكوك، والحوالات، والسّفاتج، والقروض، والنّقود، والبنوك)، وغير ذلك من واردات الكوفة ومعاهداتها والمدن التي تتعامل معها وعلى نحو ما درست التّجارة بالتفصيل كان لزاماً على أن أدرس الصّناعة في الكوفة بنفس التّفصيل فقدمت لهذا الفصل بمقدمة تعرضت فيها للدور الذّي قامت به الصّناعة في تطوير المجتمع الكوفي في تلك الفترة، ووقفت عند أهم المصنّوعات كالحياكة والنّسيج. وكانت مختلفة الأنماط فمنها صناعة الملابس. وصناعة البسط والوسائد، ومنها صناعة الخيم والحصر، وكذلك الحدادة والتّجارة، وصناعة الخزف والفخار والدّهون والعطور والصّياغة، وصناعة الصّابون والصّباغة، وصناعة الأحذية والشّمع والنّبيذ كل ذلك كان في (الفصل الثّاني)، وأفردت للعمال جزءاً من هذا الفصل حيث أن العامل عماد الحياة فكان للعمال طبقات، كما أن الجميع انتظمتهم تجمعات خاصة بهم أشبه بالنقابات.

و«الفصل الثّالث» من هذا الباب جعلته للتّنظيمات المالية في الكوفة، تكلمت فيه عن واردات الكوفة من خراج وجزية وغنائم وضرائب على التّجارة وواردات الفتوحات الإسلامية، وبينت طريقة جباية الواردات.

كما أفردت جزءاً من هذا الفصل للمصروفات، التي تصرفها الدّول وعطاء المسلمين، وكيفية توزيعه عليهم، وبينت الأسس التي سارت عليها الحكومة في توزيعها العطاء، ذكرت في هذا الفصل «الرّزق» الذّي كان يوزع على المسلمين الذّين اعتمدوا عليه في قوتهم الشّهري وبينت مقداره ومواعيد توزيعه. وتكلمت عن «بيت المال» ودوره في الحياة العامة كما جعلت جزءً من هذا الفصل لرواتب الموظفين والعمال، كما أفردت جزءاً من هذا الفصل لمستوى المعيشة في الكوفة، وأسعار الحاجات والمواد الاستهلاكية فيها.

وفي «الباب الرّابع» من البحث درست علاقة مدينة الكوفة بالمجتمع العراقي في القرن الأول الهجري، ذلك أن حياة الدّول كالأفراد تماماً لا يمكن أن يعيش بلد في معزل عما حوله من أمصار وأصقاع خاصة إذ كانت مدينة الكوفة اتخذت لنفسها سمت الزّعامة والقيادة في فترة عرفت من أخصب مراحل تاريخها على الإطلاق، وليس ذلك فحسب بل إنه في تلك الحقبة

على وجه الخصوص كان للكوفيين أثر في الحياة السّياسية، والحياة العقلية، كما انعكس هذا أخيراً في الوضع الاجتماعي والاقتصادي وأخطر من ذلك كله أن الكوفة أثرت في الفتوحات الخارجية ولعبت دوراً خطيراً في تلك الفتوحات مما حدد لها علاقاتها بالأمصار الأخرى واتخذت لها من تلك العلاقة لوناً خاصاً.

ومن أهم المؤرخين الذّي اعتمدت عليهم اعتماداً كبيراً الطبري في «تاريخ الطبري» والبلاذري في كتاب «فتوح البلدان» وابن سعد في «طبقاته» كما أنني اعتمدت على ابن الأثير في كتابه «الكامل» وابن خلدون في «تاريخه» و«مقدمته»، أما كتب الجغرافية والرّحلات فقد اعتمدت عليها في تحديد الكوفة مكانياً، وفي تقسيمها والتّعريف بالمعالم الجغرافية وبالآثار الموجودة بها وقد حفلت هذه الكتب بكثير من المعلومات ذات الشان عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية إلى جانب عنايتها بالمعلومات الجغرافية والعمرانية ومنها كتاب «الأعلاق النّفسية» لابن رسته و«البلدان» لليعقوبي و«معجم البلدان» لياقوت والمسالك والممالك لابن حوقل والمسالك والممالك لابن خرداذبه و«المسالك والممالك» للأصطخري، و«أحسن التّقاسيم في معرفة الأقاليم» للمقدسي ومختصر «كتاب البلدان» لابن الفقيه «رحلة ابن جبير»، ثمّ كان لكتب الأنساب دور كبير في هذا البحث فقد تضمنت معلومات طيبة عن القبائل العربية التي سكنت الكوفة والعراق بوجه عام وعرفتنا بالشّخصيات البارزة في هذه الفترة، ومن هذه الكتب «أنساب الأشراف» للبلاذري، و«جمهرة أنساب العرب» لابن حزم و«معجم قبائل العرب» لعمر كحالة.

ولم أهمل كتب الطّبقات والتراجم «كوفيات الأعيان» لابن خلكان و«أسد الغابة في معرفة الصّحابة» لابن الأثير و«الإصابة في معرفة الصّحابة» لابن حجر العسقلاني. ومن كتب الفقه التي اعتمدت عليها «الخراج» لأبي يوسف و«الخراج» لقدامة بن جعفر و«الخراج» ليحي ابن آدم القرشي و«الأموال» لابن سلام و«الأحكام السّلطانية» للماوردي وكتب الحديث «السّنن» لابن داود وكتاب «المسند» لابن حنبل و«وجامع المسانيد» لأبي حنيفة.

وأعطتني كتب الأدب العربي مادة طيبة لدراسة الحياة الاجتماعية في الكوفة في القرن الأول الهجري، فالأدب صورة صادقة ومعبرة حياة الشّعوب الاجتماعية والسّياسية والاقتصادية والثّقافية في مختلف العصور والبلدان.

وقد وجدت في هذه الكتب خير عون لي في دراسة الحياة الاجتماعية بالكوفة، ومن الكتب التي أخذت منها في هذا الميدان مؤلفات الجاحظ «كالبيان والتّبيين» و«البخلاء» و«التّبصير بالتّجارة» وكتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه و«الأغاني» لأبي فرج الأصفهاني و«أدب الكتاب» للصولي و«عيون الأخبار» لابن قتيبة.

هذا إلى جانب ما كتبه الدّارسون المحدثون كصالح العلي في «التّنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة» وعبد العزيز الدوري «في تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرّابع الهجري» وما كتبه ماسنيون في «خطط الكوفة» وكتاب «حياة الشّعر في الكوفة» ليوسف خليف.

كما اعتمدت على تقارير عن الحفريات والتّقنيات بالكوفة وما كشفت عنه من آثار كبعض القاشاني الملون المكتوب بالخط الكوفي من العصر الأموي.

كما أنني اعتمدت على مصادر أجنبية مهمة كان كبير في بحثي هذا مثل: of persian art و survey و dozy و cres well و repertoire وغيرها.

ولم أهمل كتب النّقود مثل «شذور العقود» للمقريزي و«الدّينار الإسلامي» للنّقشبندي و«والنّقود العربية وعلم النّميات» لأنستاس الكرملي. وكتباً في الفنون الإسلامية مثل: «فنون الإسلام» و«أطلس الفنون الزّخرفية والتصاوير الإسلامية» لزّكي حسن.

فأكون بذلك قد جمعت بين المصادر الأدبية والمادية في هذه الفترة.

والله ولي التّوفيق؟

الدكتور محمد حسن الزبيدي

٢٧ رجب ١٣٩٠هـ

١٩٧٠/٩/٢٨م

القاهرة

الباب الأوّل

مدينة الكوفة: نشأتها وتخطيطها

فتح العراق

تمهيد:

كانت بعض القبائل العربية كقبيلة بني شيبان وغيرها تنتشر على حدود الإمبراطورية الساسانية، وكانت تقوم بغارات متعددة على السّواد من ناحية الحيرة بقيادة رئيسها المثّنى بن حارثة الشيباني[1]. ورأى المثنى أنّ قومه غير قادرين على محاربة الفرس وإخراجهم من العراق فذهب إلى الخليفة أبي بكر الصّيق وشرح له موقف عشيرته من السّاسانيين وعدد له خيرات البلاد وطلب منه أن يوليه على من أسلم من قومه لمقاتلة الفرس وأن يمده بمدد لإنجاز هذه

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٤٢.

المهمة، فلبى أبو بكر طلب المثنى وكتب له عهداً بذلك، فعاد المثنى إلى قومه وعشيرته.

ثمَّ أرسل أبو بكر الصّديق كتاباً إلى خالد يأمره بالتّوجه إلى العراق بعد الانتهاء من حروب الرّدة في اليمن، وطلب أبو بكر من المثنى أن ينضم إلى قوات خالد وأن يكون تحت قيادته.

وكتب الخليفة إلى خالد بعد أن فرغ من أمر اليمامة أن يفتح العراق من الجنوب على أن يبدأ بفرج الهند (الأبلة)[1] وكتب أيضاً إلى «عياض ابن غنم» أن يقصد العراق ويدخله من أعلاه ويسير حتى يلقي خالد في الحيرة[2].

فسار خالد بن الوليد إلى جنوب العراق وتوقف في (النّباج)[3].حتى التّحق به المثنى بن حارثة الشّيباني هناك مع عدد كبير من القبائل التي جاءت لنصرة خالد، وكان هدف خالد بن الوليد أن يستولي على (الأبلة) ثغر العراق.

وكان الفرس قد أقاموا في (الأبلة) حامية قوية جداً وأقاموا حولها المسالح والحصون لحمايتها. وقد التقى خالد بن الوليد ومعه جيش كبير بلغ عدده ثمانية عشر ألف جنديٍّ[4] بهرمز قائد الفرس سنة ١٢هـ-٦٣٠م وجرت معركة حامية في (كاظمة)[5] انتصر فيها المسلمون. وبعث خالد بخبر الفتح. الأخماس إلى أبي بكر وسميت هذه المعركة بمعركة «ذات السّلاسل» لأن جنود الفرس كانوا قد شدوا أنفسهم بالسّلاسل على شكل جماعات ليثبتوا في القتال ولا يهرب أحد منهم.

وكانت هذه المعركة من المعارك الفاصلة في التّاريخ الإسلامي وكانت بداية طيبة وفاتحة لانتصارات عظيمة أدت إلى سقوط الدّولة السّاسانية واستيلاء المسلمين على هذه البلاد. ثمَّ تقدم خالد حتى فتح الأبلة[6] بعد مقاومة شديد ومنها سار إلى الحيرة[7] شمالاً بعد أن خلف سويداً ابن قحطبة الذّهلي أميراً على البصرة.

وقد حدثت في طريق خالد إلى الحيرة عدة مناوشات مع الفرس منها وقعة الثّنى ووقعة اللولجة ووقعة الليسى على نهر الفرات استطاع أن ينتصر فيها. وقد حاصرت قوات المسلمين الحيرة وتم لهم النّصر بعد أن طلب أهلها الأمان فصالح خالد بن الوليد أهلها وكتب بذلك عهداً.

ثمَّ اتجه خالد بن الوليد إلى الأنبار ففتحها بعد حصار طويل ثمَّ سار إلى عين التّمر لفتحها وهناك وجد خالد أنّ الفرس حشدوا قوات كبيرة وأنضم إليهم من نصارى العرب من بني تغلب وأياد عدد كبير ولكن خالد استطاع بشجاعته وحزمه أن يهزم جموع الفرس وينتزع النّصر انتزاعاً[8] ولما فرغ خالد من عين التّمر أتاه كتاب من عياض بن غنم يطلب النّجدة لمقاتلة نصارى العرب، فسار إليه خالد ونزل دومة الجندل وقاتل نصارى العرب حتى هزمهم[9]. ثمَّ بلغه أن الفرس قد تجمعوا لمهاجمة الأنبار فقرر العودة إلى الحيرة لمجابهة الموقف هناك.

أرسل الخليفة أبو بكر يطلب من خالد السّير إلى الشّام مع قسم من جيشه لمساعدة الجيوش العربية هناك على أن يستخلف المثنى بن حارثة الشّيباني على البقية الباقية من جيش المسلمين[10].فاتخذ المثنى الحيرة قاعدة له سنة ١٣هـ

وكان الفرس قد جمعوا جيشاً عظيماً التقى بالمثنى عند بابل حيث دارت معركة حامية استطاع المثنى فيها أن ينتزع النّصر من العدو، ولكنه تبين كثرة جيش الفرس وقلة جيش المسلمين فكتب إلى أبي بكر يطلب منه العون والمدد، ولما وجد أن الإمدادات قد أبطأت خرج إلى المدينة حيث وجد أبا بكر مريضاً وقد اشتدت عليه الحمى فقص عليه خبر العراق وطلب المثنى من أبي بكر الاستعانة بمن حسنت توبته من المرتدين لأنهم أكثر حماساً في القتال فاستدعى أبو بكر عمر بن الخطاب وطلب منه أن يندب النّاس مع المثنى ولا يشغلهم موته عن أمر دينهم، وقد توفي أبو بكر في اليوم التّالي، فتولى الخلافة عمر بن الخطاب فندب النّاس إلى العراق مع المثنى وسير معه جيشاً كبيراً من المهاجرين والأنصار وجعل عليه أبا عبيد بن مسعود الثّقفي، وقد سبق المثنى هذا الجيش في العودة إلى العراق ودخل الحيرة حيث وجد الفرس قد انشغلوا عن أمر المسلمين لخلاف وقع بين الأسرة الحاكمة وكان (رستم) يجمع الجيوش لملاقاة المسلمين كما أن المثنى بدوره بدأ يستعد لمقابلة الجيش الفارسي فحدثت بينهما اشتباكات صغيرة متعددة هرب الفرس بعدها إلى كسكر[11] ثمَّ تبعهم المسلمون إلى كسكر فهزموهم، ولما علم رستم بخبر هذه الهزائم جهز جيشاً عظيماً يقوده (بهمن جاذويه) وتوجه أبو عبيد نحو الجيش الفارسي

(١) الطبري ج ٢ ص ٥٥٤، محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السّياسية ص٢٨٨.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٤٢، الطبري ج ٢ ص ٥٥٣.

(٣) النّباج: اسم مكان في بادية البصرة على نصف الطّريق بين البصرة ومكة

(٤) الطّبري جـ ٢ ص ٥٤٤.

(٥) ابن أثير: الكامل جـ ٢ ص ٢٦٥؛ كاظمة: جون علي سيف البحر في طريق البحرين من البصرة، بينها وبين البصرة حلقتان، وفيها ركايا كثيرة وماؤها شروب واستقاؤها ظاهر.

(٦) ابن الأثير: الكامل جـ ٢ ص ٢٩٥.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٤٣، ابن الأثير: الكامل جـ ٢ ص٢٩٤.

(٨) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٤٧، ابن الأثير: الكامل جـ ٢ ص٣٠١.

(٩)ابن الأثير: الكامل، جـ ٢ ص ٣٠٣.

(١٠) ابن الأثير:الكامل، جـ ٢ ص ٣١٢.

(١١) ابن الأثير: الكامل جـ ٢ ص ٣٣٥.

ونزل المروحة[1] (موضع البرج والعاقول) فطلب بهمن جاذويه من أبي عبيد إما أن يعبر المسلمون إليه أو يعبر هو إلى جيش المسلمين، فاشار النّاس على أبي عبيد بعدم العبور ولكنه لم ياخذ برأي أحد وعبر بالمسلمين فدارت رحى الحرب، وكانت هذه الحرب قاسية على المسلمين لأن الفرس استخدموا الفيلة في القتال حيث وضعوها أمام الجيش وقد أفزعت هذه الفيلة خيول المسلمين، ولما استبطأ المسلمون النّصر طلب أبو عبيد أن يوجهوا قتالهم نحو الفيلة، فترجل أبو عبيد ومعه جماعة من أصحابه واتجه كل منهم إلى أحد الفيلة، ولكن فيلاً استطاع أن يصرع أبا عبيد بقدميه فقتله[2]، وعندما شاهد المسلون مصرع أبي عبيد أصابهم الفزع فحلت بهم الهزيمة فبادر رجل من ثقيف إلى قطع الجسر كي لا ينهزموا وطلب منهم أن يموتوا على ما مات عليه أمراؤهم أو يظفروا بالنّصر ولكن المسلمين لم يستطيعوا أن يستعيدوا رباطة جاشهم ويلموا شعثهم فهربوا صوب الجسر المقطوع واستطاع المثنى وفرسان آخرون أن يحموا مؤخرة جيش المسلمين وجرح المثنى وذهب معظم جيشه بين قتيل وغريق ولم يبق منه إلا القليل، فطلب النّجدة من عمر بن الخطاب ولما علم عمر بهذه النّكبة حزن حزناً شديداً على ما أصاب المسلمين فاعلن النّفير العام وأخذ بمد العراق بإمدادات كبيرة وقد حقق المثنى بهذه الإمدادات نصراً كبيراً في معركة (البويب) التي ثار بها لمعركة الجسر، وقد مهدت هذه المعارك بين العرب والفرس إلى استعداد الطّرفين لخوض معركة القادسية الفاصلة. وبعد أن أعلن عمر التّعبئة العامة كتب إلى عماله يقول:«لا تدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثمَّ وجهتموه إلي والعجل العجل»[3].

كما طلب عمر من عماله إرسال كل مَن فرغ من تأدية فريضة الحج فاجتمع له جيش كبير وعهد بقيادته إلى سعد بن أبي وقاص[4] فسار به نحو العراق لملاقاة الجيش الفارسي حيث بدأت الاستعدادات لمعركة القادسية فانتخب سعد من بني تميم والرّباب أربعة آلاف وانتخب من بني أسد ثلاثة آلاف. وكان المثنى بن حارثة في العراق في ثمانية آلاف من ربيعة ومعظمهم من بكر بن وائل[5] ولكن المثنى توفي متأثراً بجراحه في موقعة الجسر قبل أن يلتقي سعد وقد ترك المثنى وصيته له جاء فيها: «أن لا يقاتل عدوه وعدوهم (يعني المسلمين) من أهل فارس إذا استجمع أمرهم وملؤهم في عقر دارهم وأن يقاتلهم على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدره من أرض العجم فإن يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم وإن يكن الأخرى فاءوا إلى فئة ثمَّ يكونوا أعلم بسبيلهم وأجراً على أرضهم إلى أن يرد الله الكرة عليهم»

وعندما استقر سعد بن أبي وقاص في العراق كتب له الخليفة عمر ابن الخطاب كتاباً عندما كان بشراف قال فيه: «وإذا انتهيت إلى القادسية -والقادسية باب فارس في الجاهلية- وهي أجمع تلك الأبواب لمادتهم...وهو منزل رغيب، خصيب، حصين دونه قناطر انهار، وأنها ممتنعة فتكون مسالحك على أنقابها، ويكون النّاس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر والجراع بينهما، ثم ألزم مكانك لا تبرحه، فإنهم إذا حسوك أنغضتهم ورموك بجمعهم الذّي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم. فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ثمَّ لا يجتمع لكم مثلهم أبداً إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم وإن تكن الأخرى كان الحجر في أدباركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتي الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة»[6].

وقد رمى سعد الفرس بهذا العدد الهائل من الجيوش في القادسية فكانت معركة مريرة قاسية انتهت بانتصار المسلمين، وبهزيمة الجيش الفارسي، وقد تتبع جيش المسلمين فلولهم إلى المدائن فاستولى عليها ثمَّ خاض (معركة جلولاء) وأحرز فيها ذلك النّصر الرّائع الذّي هز قواعد الحكم الفارسي.

وقد وضحت الحاجة عندئذ إلى مرحلة الاستقرار في حياة العرب إلى إنشاء القاعدتين العربيتين الكوفة والبصرة. أما قاعدة الكوفة فهي التي سوف نتحدث عنها فيما بعد.

إنشاء الكوفة:

لم تكن الكوفة معروفة بهذا الاسم قبل تمصيرها وإنما كان موضعها أرضاً خالية من السّكان على الضّفة الغربية للفرات الأوسط (إلى الشّرق من مدينة الحيرة)، وكان بينها وبين النّهر لسان من الرّمل يقترب عمودياً من الفرات يسمى المطاط[7] وكانت توجد على حافة البادية مسلحة تحرس (جسر الزّوارق) المنصوب على الفرات الذّي يفضي إلى الطّريق المؤدي إلى طيسفون (المدائن)[8]، وفي هذا السّهل الخصيب المحصور بين الفرات شرقاً والبادية الواسعة المطلة على

(١) المروحة: وهي موضوع قرب نهر الفرات قرب الحيرة.
(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ٢ ص ٣٣٧.
(٣) الطبري جـ ٣ ص ٤.
(٤) الطبري جـ ٣ ص (٩).
(٥) الطبري جـ ٤ ص ١٦٠.
(٦) الطبري جـ ٣ ص ١٠-١١.
(٧) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٧٧.
(٨) ماسنيون: خطط الكوفة ص ٦.

مشارف الشّام وعمان غرباً بينت هذه المدينة التي اتخذت اسم الكوفة عند تمصيرها.

وقد ذكر المؤرخون عدة أسباب لتسمية مدينة الكوفة فقيل[1]: إنه سميت الكوفة نسبة إلى أرضها التي كانت أرض رملية تخالطها حصاء. وقيل أيضاً أن سعد بن أبي وقاص عندما اختط موضع الكوفة قال للمسلمين تكونوا أي (اجتمعوا). وقيل أيضاً سميت الكوفة نسبة إلى جبل صغير في وسطها يقال له كوفان وعليه اختطت. وقيل: سميت بهذا الاسم نسبة إلى جبل (سانيدما) محيط بها كالكفافة عليها. وقيل إنها بنيت في منطقة اسمها (كويفة) ابن عمر.

وقد تم تخطيط الكوفة على يد سعد بن أبي وقاص- بعد تخطيط البصرة بسنتين أو ثلاث- وقد نزل بها المسلمون في السّنة السّابعة عشرة للهجرة[2] سنة (٦٣٨)م، وقيل أيضاً أن تخطيط الكوفة قد تمَّ في المحرم سنة سبع عشرة لسنتين وشهرين من موقعة القادسية ولثلاث سنين وثمانية أشهر من ولاية عمر بن الخطاب[3]. وعلى هذا فبناء الكوفة تمّض بعد بناء البصرة، وأن بناء كل من الكوفة والبصرة تمَّ بعد فتح المدائن وخروج الملك يزجرد عنها إلى حلوان بعد موقعة جلولاء.

أمر عمر بن الخطاب سعداً أن يبعث سليمان وحذيفة ليختارا منزلاً برياً وبحرياً لا يفصل بينه وبين المسلمين بحرٌ أو جسرٌ[4]. وقد بحث سعد عن أماكن كثيرة لم ترق لعدم صلاحيتها للأعراض العسكرية والحربية، أو لعدم توفر الشّروط الصّحية الملائمة لحياة العرب حتى اهتدىٰ أخيراً إلى أرض الكوفة غرب الفرات دله على موضعها (نفيلة الغساني) الذّي وصفها لسعد «بأنها أرض مرتفعة عن المباق وانحدرت عن الفلاة وينبت فيها الخزامي والأقحوان والشّيح والقيصوم والشّقائق وغيرها[5]. وقد أشار البلاذري إلى أن هذا المكان يقال له «سورستان أو خد العذراء»[6].

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص ٣٧٥، الطبري جـ ٣ ص ١٤٦، ١٤٤
ياقوت: معجم البلدان ج٧ ص٢٩٦، البكري: معجم ما استعجم جـ٤ ص١٥٢،١٤٢، ابن الفقيه: البلدان ص١٦٥، صفي الدّين: مراصد الاطلاع جـ٣ ص١٨٧.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٧٤، الطبري جـ ٣ ص ١٤٤، ابن الأثير: الكامل جـ ٢ ص ٢٩٧، اليعقوبي: التّاريخ، جـ ٢ ص ١٧٢، لترلنج: بلدان الخلافة الشّرقية ص ١٠١،15.،1، crewell.vol ،p

(٣) الطّبري جـ ٣ ص ١٤٥، ابن الأثير: الكامل جـ ٢ ص٣٦٧- ٣٦٨. ابن خلدون: التّاريخ جـ ٢ ص ٣٤١.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٧٤، الطّبري جـ ٣ ص ١٤٥، ابن الأثير: الكامل جـ ٢ ص ٤١١.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٧٧.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٧٧، ياقوت: معجم البلدان جـ ٧ ص ٦٩.

إن من أهم الأسباب التي أدت إلى بناء الكوفة أن سعد بن أبي وقاص عندما تغلب على الفرس ونزل عاصمتهم المدائن بعث وفداً إلىٰ عمر بن الخطاب يخبره بخبر الفتح والغنائم، فلما وصل وفده إلى الخليفة رأى ألوانهم تغيرت وحالهم قد تبدلت فسألهم عن ذلك فقالوا وخومة البلد قد غيرتنا فأمر أن يرتادوا منزلاً يلائم المسلمين لأن العرب لا يوافقهم في البلاد إلا ما وافق إبلهم[7]. فاتى سعد الأنبار وأراد أن يتخذها منزلاً فوجدها لا تصلح له فتحول إلى الكوفة.

هذا ويضاف إلى صفات الكوفة المناخية كصفاء الجو وعذوبة المناخ صفات أخرى مهمة هي أنها تقع على حافة صحراء الجزيرة العربية لا يفصل بينها وبين العاصمة ماء أو جسر[8] وهو شرط اشترطه عمر بن الخطاب على سعد في اختيار المكان وذلك ليسهل ربط العاصمة بالكوفة وبالقوات الحربية هنا وهناك وليكون الخليفة على اتصال دائم بها، حتى يسهل وصول المؤن والإمدادات العسكرية دون أن يعيقهم ماء أو نهر وحتى يتمكنوا أن يحموا ظهورهم بالصحراء فيتوغلوا فيها عند اشتباكهم مع الأعداء. يضاف إلى ما تقدم أن عمر أراد الاحتفاظ بالعرب بعيدين عن مراكز المدن القديمة حتى لا يتاثرون بما شاع فيها من ترف ونعومة عيش فيفقدون بذلك ميزاتهم العسكرية، وكما أرادها أن تكون لهم داراً لهجرتهم ومحلاً لإقامتهم ومعسكراً لحاميتهم يسيطرون على العراق وفارس يحرزون ثغورهم ويمدون أهل الأمصار[9] وأن يتخذها دار هجرة وقيرواناً[10]، وقد أراد سعد أن يجمع جنده في هذه البقعة الّتي ارتضاها أن تكون داراً للمسلمين وكوفة لجنده فكتب إلى القعقاع بن عمر يطلب منه المجيء مع الجيش إلى المدائن وأن يخلف في جلولاء بعده (قباذ) ويجلب معه من كان معه من الحمراء (حمراء ديلم)[11]، وكتب أيضاً إلى عبد الله بن المعتمر يطلب منه أن يخلف على (الموصل) مسلماً بن عبد الله[12] وأن يتوجه مع من يرغب من الأساورة إلى المدائن فرحل قسم من الأساورة مع عبد الله وبقي قسم آخر مع مسلم، وعند اجتماع جند المسلمين في المدائن، رحل بهم سعد حتّى عسكر في موضع الكوفة في المحرم سنة سبع عشرة[13].

(٧) البلاذري: فتوح البلدان ص ٣٧٥، الطّبري جـ ٣ ص ١٤٥، ابن خلدون: التّاريخ جـ ٣ ص ٣٢١، creswell.1.vol.p 15

(٨) محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السّياسية ص ٢٣٤، creswell. vol.1. p. 15

(٩) ابن سعد: الطّبقات الكبير ج٦ ص١.

(١٠) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٧٤.

(١١) انظر موضوع الموالي.

(١٢) كان قد أسر أيّام القادسية.

(١٣) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٧٤، الطّبري ج٣ ص١٤٧، ابن الأثير: الكامل ج٢ ص٤١١.

وعندما نزل سعد الكوفة كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يخبره بأنّه ترك المدائن وأنّه نزل أرضاً تلاءم حالتهم الصّحية ووضعهم العسكري فقال له: «إنّي نزلت الكوفة بين الحيرة والفرات بريّاً بحرياً بين الجلاء والنّصر، وخيرت النّاس بينها وبين المدائن ومن أعجبته تلك جعلته فيها مسلحة»[١].

فقد اختلفت الرّوايات في طريقة الاهتداء إلى المنطقة الّتي اختط عليها سعد الكوفة، ولكنّها تجمع على أنّ اختيار المكان أو الموضع لمدينة الكوفة لم يكن أمراً مرتجلاً وإنّما كان بعد بحث دقيق متواصل وتفتيش طويل.

وهنا لا بدّ لنا أن نبين الأسباب الّتي دعت إلى تاسيس الكوفة وبنائها أنّ تاسيس الكوفة يرجع إلى عاملين أساسيين هما:

عامل عسكري: لقد توغل العرب في فتوحاتهم إلى مناطق واسعة في بلاد فارس وبعيدة كلّ البعد عن العاصمة (المدينة) وعلى هذا كان لا بدّ من المحافظة على خطوط المواصلات للجيوش الإسلامية المقاتلة في هذه المنطقة والّتي تحتاج إلى معسكر ثابت يتخذه القائد نقطة ارتكاز وقاعدة حربية يستريح فيها الجند بعد العناء الشّديد من القتال، ويحمي ثغور البلاد ويكون أيضاً مركزاً لتموين ساحات القتال بالجند والمؤن[٢] وكما قال عمر بن الخطاب: «يحرزون ثغورهم ويمدون أهل الأمصار»[٣].

وعامل جغرافي: ذلك أنّ اختلاف البيئة الصّحراوية الّتي خرج منها العرب إلى بيئة أخرى وهي بيئة بلاد العراق، أثرت على صحة الجند، فغيرت ألوانهم وذبلت أجسامهم، وقد حرص العرب أن تكون محلات بناء المدن مناطق صحية خالية من الحشرات والبق وغيرها غير موبوءة، ولا وخمة الهواء وأن تكون فيها مناظر طبيعية تريح النّفس.

ولما استقر العرب في الكوفة وجد سعد بن أبي وقاص أنّ حياة الخيام وحياة المعسكرات الّتي يحيونها لا تلائم الحياة الجديدة أو المجتمع الجديد الّذي الفوه، أو لعلهم أرادوا أن تكون لهم مدينة على النّمط الفارسي الّذي شاهده في أثناء حروبهم في بلاد فارس[٤] ففكروا في بناء البيوت من القصب كي تكون أكثر ملائمة وأكثر واقعية من حياة الخيام وكتب سعد إلى عمر ابن الخطاب بذلك يستاذنه في بناء بيوتهم من القصب فاجابهم الخليفة عمر «أنّ العسكر أشد لحربكم وأذكر لكم وما أحب أن أخالفكم فابتنوا بالقصب»[٥].

(١) الطّبري ج٣ ص١٤٧، ابن الأثير: الكامل ج٢ ص٤١١، ابن خلدون: التّاريخ ج٢ ص٣٤٢.

(٢) يوسف خليف: حياة الشّعر في الكوفة ص٤ (غير مطبوع).

(٣) ابن سعد: الطّبقات الكبر ج٦ ص١.

(٤) يوسف خليف: حياة الشّعر في الكوفة ص٥ غير مطبوع.

(٥) الطّبري ج٣ ص١٤٧، ابن الأثير: الكامل، ج٢ ص٤١١، ابن خلدون: التّاريخ ج٢ ص٣٤٢.

من هذا يبدو أنّ عمر لم يكن راغباً رغبة صادقة في سكنى العرب في المدن واتخاذهم بيوتاً لأنّ هذا يبعدهم كلّ البعد عن حياة الخشونة وينقلهم إلى حياة التّرف الّتي يخشاها، ولكنّه لم يستطع الوقوف أمام تيار هذه الرّغبة الجامحة.

ولكنّ هذا النّوع من البناء لم يصمد أمام الظّروف الطّبيعية القاسية الّتي كانت تمر بها الكوفة يومها، فاحترقت المدينة جميعها وفكر أهلها في بناء بيوتهم من الطّين واللّبن، حتّى تكون أكثر صموداً من بيوت القصب أما تحديات الطّبيعة.

وقد بعث سعد وفداً إلى الخليفة عمر بن الخطاب خوفاً من معارضته فأذن لهم وقال لهم: «افعلوا ولا يزيد أحد على ثلاثة بيوت ولا تطاولوا في البنيان وألزموا السّنة تلزمكم الدّولة»[٦].

التّخطيط:

ويهمنا هنا أن نعرف شيئاً عن خطط الكوفة كما صورها المؤرخون المعاصرون لنبين معالم هذه المدينة منذ ظهورها للمرة الأولى حتى آخر العصر الأموي.

كان المسجد الجامع من أهم ملامح هذه المدينة الجديدة ويسوق الطّبري في معرض حديثه عن هذا المسجد خبراً طريفاً فيقول «قام رجل في وسطه رام شديد النزع (قوي) فرمى عن يمينه فأمر من شاء أن يبني وراء موقع ذلك السّهم ورمى بين يديه ومن خلفه وأمر من شاء أن يبني وراء موقع السّهمين[٧]. وكان المسجد مربع الشّكل متسع الرّقعة وقد اختط على عدد المقاتلة في الكوفة وكان عددهم يومها أربعين ألف مقاتل[٨].

وكانت ظلة المسجد مائتي ذراع أقيمت على أعمدة من الرّخام جلبت من بلاد فارس وقد حفروا حول الصّحن خندقاً لئلا يقحمه أحد بالبنيان[٩].

هذا وكان المسجد في أول الأمر لم تكن له جدران تحيط به حيث كان الرّجل الجالس في المسجد يرى باب الجسر ودير هند[١٠].

وبقي المسجد على هذا الوضع إلى زمن معاوية (فزاد فيه المغيرة بن شعبة وبناه)[١١] أيام ولايته للكوفة، ولما ولي زياد بن أبيه الكوفة زاد في سعة المسجد أيضاً حيث زاد فيه عشرين ذراعاً وجعله يتسع لستين ألف شخص[١٢].

(٦) الطّبري ج٢ ص١٤٨، ابن الأثير: الكامل ج٢ ص٤١١، ابن خلدون: التّاريخ ج٢ ص٣٤٢.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٧٥ـ الطّبري جـ ٣ ص ١٤٨ – ١٤٩.

(٨) ياقوت: معجم البلدان جـ ٧ ص ٢٩٧.

(٩) الطّبري جـ ٣ ص ١٤٨..15. p .creswell، vol.1

(١٠) الطّبري جـ ٣ ص ١٥١، pp.16-17، crewell ،vol.1

(١١) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٧٦.

(١٢) ياقوت: معجم البلدان جـ ٧ ص ٢٩٧.

وقد أقام له أبواباً وجدراناً كان ارتفاعها ثلاثين ذراعاً. وجيء برخامه من جبال الأهواز وقد اتخذ زياد في مسجد الكوفة مقصورة جددها خالد بن عبد الله القسرى[١]. ثمَّ هدمه الحجاج بن يوسف الثّقفي وبناه.

وفي أيام يوسف ابن عمر الثّقفي سقط الحائط مما يلي دار المختار بن أبي عبيد الثقفي فبناه[٢].

وقد كان المسجد الجامع هذا هو المركز الدّيني والثّقافي والاجتماعي والرّوحي في مدينة الكوفة.

دارة الأمارة:

أما دار الأمارة فقد بنيت بجوار المسجد الجامع في الجهة الجنوبية (الجهة القبلية) من المسجد مع انحراف قليل نحو الشّرق[٣].هذا وقد بني هذه الدّار (روزبه) حيث جلب الآجر من الحيرة[٤]. وقد ظل هذا القصر الذّي يعرف بقصر الأمارة منزلاً خاصاً للخلفاء والملوك والأمراء بعد سعد بن أبي وقاص وظل قائماً حتى هدمه عبد الملك بن مروان[٥] سنة ٧١هـ

هذا وقد دلت الحفائر التي أجريت في العراق بحثاً عن آثار الكوفة على أن قصر الأمارة هذا كان يحيط به سوران واحد داخلي والآخر خارجي ولا يبعد أن يكون السّوران قد شيدا في زمن واحد[٦]. كما كشفت الحفائر عن كتابات من العصر الأموي كتبت على جدرانه في تلك الفترة بالحروف الكلدانية والآرامية، وكانت معظم هذه الكتابات تنطوي على معاني الاستغفار والتّوبة.

وكان القصر يطل من ناحية الغرب على ميدان يسمى (رحبة علي) وفي وسط القصر بينت (مصطبة) كبيرة أعدت للاجتماعات.

هذا وقد بني بيت المال بجانب دار الأمارة وبجوار المسجد حيث كان يفصل بينهما طريق طوله مائتا ذراع[٧]. وقد حدث أن بيت المال هذا نقب عليه نقب، وأخذ منه المال، وكتب سعد بن أبي وقاص بذلك إلى الخليفة عمر بن الخطاب فكتب إليه أن ينقل بيت المال وأن يضعه بجوار الدّار لأن المسجد (آهلاً في النّهار والليل)[٨] فنقل بيت المال إلى جانب الدّار.

الأحياء:

وبعد أن اختط في الكوفة المسجد ودار الأمارة وجعل ما حولهما فراغاً كالميدان عينت حدود المدينة في جهاتها الأربع بعلامات خاصة روعي في ذلك اتجاهات الرّيح ثمَّ بينت بعض (المرافق العامة) ثمَّ اختط النّاس دورهم من وراء تلك العلامات، وقد قسمت بين اليمانية والنّزارية على هذا النّحو «فاسهم لنزار وأهل اليمين بسهمين على أنه من خرج سهمه أولا فله الجانب الأيسر وهو خيرهما فخرج سهم أهل اليمن فصارت خططهم في الجانب الشّرقي وصارت خطط نزار في الجانب الغربي من وراء تلك العلاقات وترك ما دونها فناء للمسجد ودار الأمارة[٩]»).

وقد قسمت الكوفة إلى سبع مناطق عسكرية سميت (الأسباع) وذلك وفقاً للقيادات وتيسيراً للتّعبئة العامة عند النّفير والخروج للجهاد في المواسيم وتيسيراً لتوزيع الغنائم والأعطيات بعد العودة[١٠]، بينما نرى أن مدينة البصرة قسمت إلى خمس مناطق سميت الأخماس[١١].

الشوارع والطرق العامة:

ولما تمَّ تمصير الكوفة وبناؤها قسمت فيها الشوارع والطّرقات العامة وجعل فيها خمسة عشر منهجاً[١٢]. وجعل عرض كل منهج أربعون ذراعاً ويليها ثلاثون ذراعاً وما بين ذلك عشرين والأزقة سبع أذرع حسبما أمر عمر بن الخطاب[١٣]. واختطت المناهج هذه مبتدئة من الجامع باعتباره مركز الحياة، وهي[١٤]:

١-في ودعه الصّحن (أي في شماله): المنهج الأوّل والثّاني لقبيلتي سليم وثقيف. والمنهج (الثالث) لهمدان والمنهج (الرّابع) لجيله والمنهج (الخامس) ليتم اللات وتغلب.

٢-في قبلة الصّحن (أي في جنوبه): المنهج (السادس) لبني أسد والمنهج (السّابع) بين بني أسد والنّخع والمنهج (الثامن) بين كندة والنّخع والمنهج (التّاسع) بين كندة والازد.

٣-في شرق الصّحن: المنهج (العاشر) للأنصار ومزينة والمنهج (الحادي عشر) ليتم ومحارب والمنهج (الثّاني عشر) لأسد وعامر.

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٧٦.

(٢) ياقوت: معجم البلدان جـ ٧ ص ٢٩٩، البراقي: تاريخ الكوفة ص ١٦٦.

(٣) مجلة سومر، جـ ١ – ٢ ص ٤.

(٤) الطّبري جـ ٣ ص ١٤٨، creswell .vol .1 .16.p

(٥) وذكر أن أسباب هدم هذا القصر أن عبد الملك بن مروان كان قد جلس في القصر واضعاً رأس مصعب بن الزّبير بين يديه، فقال له عبد الملك بن عمير يا أمير المؤمنين، جلست أنا وعبيد الله بن زياد في هذا المجلس ورأس الحسين بن علي بين يديه، ثمَّ جلست أنا والمختار بن عبيد الثّقفي، فإن رأس عبيد الله بن زياد بين يديه، ثمَّ جلست أنا ومصعب بين يديه وأنا أعيذ أمير المؤمنين من شر هذا المجلس، فارتعد عبد الملك وقام من فوره وأمر بهدم القصر.
الدّميري: حياة الحيوان جـ ١ ص ٨٠. سبط الجوزي: تذكرة الخواص ص ١٤٨.

(٦) مجلة سومر، جـ ١ – ٢ ص ٤.

(٧) الطّبري، جـ ٣ ص ١٥.

(٨) الطّبري، جـ ٣ ص ١٤٨.

(٩) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٧٥.

(١٠) ماسنيون: خطط الكوفة ص ٩.

(١١) ماسنيون: خطط الكوفة ص ١٠.

(١٢) المنهج: الحد الفاصل بين تصفيف الخيام وهي بمثابة الطّرق الرّئيسة التي خططها سعد للقبائل المختلفة.

(١٣) الطّبري جـ ٣ ص ١٤٨.

(١٤) الطّبري جـ ٣ ص ١٤٩.

٤-في غرب الصّحن: (المنهج الثالث عشر) لبجاله (من غطفان) وبجله (ابن قيس) والمنهج (الرّابع عشر) لجديلة (وأخلاط) والمنهج (الخامس عشر) لجهينة وأخلاط

ويضاف إلى ذلك شوارع عامة تسمى ب (السّكك) وعرض السّكة كما قلنا من ثلاثين إلى عشرين ذراعاً.

وكانت هذه السّكك تنار بواسطة المشاعل أثناء الليل[١] وتعرف بأسماء بطون القبائل التي تسكن في جانبها وكانت تحمل أسماء بعض الأعلام والتّجار.

وأهم سكك الكوفة، سكة البريد: وموقعها بين الجسر الذّي كان في الجانب الشّرقي بين القصر وبين الكناسة. وكانت في الكوفة مفارق طرق تسمى بالفارسية (جهار سوج)[٢] ومعناها الجهات الأربعة. وأهم هذه المفارق جهار سوج خنيس وجهار سوج بجيله وجهاز سوج كندة وجهاز سوج همدان[٣]. وغيرها.

الأسواق:

لم تقتصر الأسواق على البيع والشّراء وإنما كان لها أثر كبير في حياة العرب فهي مكان لفض المنازعات القبلية، ودار يلجأ إليها الضعفاء والعاجزون، يطلبون الحماية وفيها تعقد الأحلاف وتدفع المظالم عن المظلومين كما أنها كانت مدرسة الشّعر والنّثر يتبارى فيها الشّعراء والخطباء، في المناسبات القومية والدّينية، ولما بنى العرب الكوفة لم ينسوا أن ينقلوا مدرستهم الأولى (الأسواق) إلى هذا المصر الجديد وأعطوها نفس الصّورة التي كانت عليها في الجاهلية، فلم يفرضوا عليها أسواراً أو حدوداً مصطنعة وإنما تركوها ساحة رحبة وأرضاً واسعة، وليس أدل على ذلك من قول عمر بن الخطاب «الأسواق على سنة المساجد من سبق إلى مقعد فهو له حتى يقوم منه إلى بيته ويفرغ من بيعه»[٤].

كانت أسواق الكوفة تمتد من القصر والمسجد إلى دار الوليد بن عقبة من جهة القلائين من الجهة الأخرى وإلى منازل ثقيف وأشجع من الجانب الآخر وكانت تتصل بالكناسة.

وقد وضعت لها بعد ذلك سقوف من الحصر حتى كانت أيام خالد بن عبد الله القسري فعقدها بالحجارة وجعل لأهل كل سلعة داراً أو سوقاً[٥].

وفي هذه الأسواق اتخذ المحتسب مجلسه بين حوانيت الصّيارفة والمسلفين وكانت حوانيت الصّيارفة هذه تقع في مسجد بني جذيمة[٦].

(١) ماسنيون: خطط الكوفة ص ١٧.
(٢) ماسنيون: خطط الكوفة ص ١٧.
(٣) ابن سعد: الطّبقات الكبير، جـ ٦ ص ٢٤٢، ٢٨٥.
(٤) الطّبري جـ ٣ ص ١٤٩، ابن الأثير: الكامل: جـ ٢ ص ٤١٢.
(٥) اليعقوبي: البلدان ص ٣١١، ماسنيون: خطط الكوفة ص ٢٢.
(٦) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٤٨.

الكناسة:

وتقع الكناسة بين مسجد الكوفة ومسجد السّهلة من ناحية البادية[٧]، وكانت كناسة بني أسد[٨] عند المدخل الغربي للكوفة، ثمّ صارت محلة أو سوقاً أو محطة تجارية كبرى للعرب «وهي في الكوفة مثل المربد في البصرة»[٩] وقد تمركزت فيها الأعمال التّجارية مع الجزيرة العربية، فكانت موضعاً لمناخة الإبل والقوافل وتحميل البضائع التّجارية وتفريغها، فاصبحت من محلات الكوفة الكبيرة. وكان بالكناسة أسواق كثيرة، كاسواق البرازين تجري فيها المعاملات على الماشية كالبغال والحمير والإبل بيعاً واستئجاراً، وفيها كان يباع الرّقيق أيضاً. هذا وقد نزلت الكناسة قبائل عدة هي (عبس وضبة وبالأخص تميم)[١٠] ويضاف إلى مكانة الكناسة التّجارية المكانة الأدبية، فكانت أشبه بسوق عكاظ حيث كانت ملتقى الشّعراء والأدباء، يلقون فيها قصائدهم[١١] وفيها كانت تثور مفاخراتهم ومناظراتهم كما كانوا يتذاكرون فيها أيام النّاس[١٢].

هذا ولما انحطت الكوفة أضحت الكناسة ضاحية منعزلة فيها منازل آل طلحة ونبي تميم وغيرها.

الجبانة

ومن الجدير بالملاحظة أن مقابر الكوفة (جبانتها) تختلف اختلافاً كبيراً عن مقابر البصرة إذ ليس في أخبار البصرة إلا ذكر قليل للمقابر الخاصة وأكثر هذه المقابر لأشخاص كمقبرة حصين عند الزّابوقة ومقبرة شيبان وغيرها. إذ أن أغلبة النّاس فيها تدفن موتاها في بيوتها مما أدى إلى عدم وجود مقابر عامة خاصة بالقبائل وكانت القبور في البصرة مجرد حفر يوضع فيها جسد الميت ثمّ يوارى بالتراب ولا يبني عليه شيء سواء كان فقيراً أو عظيماً، وقيل عندما مات بشر بن مروان (أمير البصرة) دفن قرب حبشي ثمّ اختلط القبران على النّاس فيما بعد فلم يستطيعوا التّمييز بينهما[١٣].أما مقابر الكوفة فكانت لكل قبيلة مقبرة خاصة بها[١٤]، وتقع عادة في خططها، وقد لعبت مقابر الكوفة دوراً هاماً في الحياة السّياسية إذ اتخذها أفراد القبائل مراكز للتجمع عندما يريدون التّمرد أو الثورة[١٥].

(٧) المقدسي: أحسن التّقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١١٧.
(٨) محل لرمي الأنقاض والأوساخ (المزبلة) لهذه القبيلة.
(٩) البراقي: تاريخ الكوفة ص ١٤٦، ماسنيون: خطط الكوفة ص ٣١.
(١٠) ماسنيون: خطط الكوفة ص٣١.
(١١) وكيع: أخبار القضاة ج٣ ص٩٢.
(١٢) الأصفهاني: الأغاني ج١٤ ص٣٠.
(١٣) الجاحظ: البيان والتّبين ج٣ ص١٣٢. ٣- الكوفة
(١٤) اليعقوبي: البلدان ص٣١١.
(١٥) الطّبري، ج ٧ ص ١٠٠، ابن سعد: الطّبقات الكبير ج٧ ص٧.

ولم تكن لهذه القبور قباب أو بنايات ضخمة تميزها عن غيرها ومن أشهر الجبانات في الكوفة جبانة «كندة»[1] وجبانة (الثّوية) وهي لتثقيف وقريش[2] وجبانة عزرم الفزارى[3]. وجبانة بشر[4] الخثعمي لعشيرة طي، وقد نسبت إلى بشر بن ربيعة بن عمر الخثعمي[5] وجبانة مخنف اللازد[6].

وجبانة سليم السّلولي لبني عامر بن قيس[7] وجبانة مراد لمذحج[8]. وجبانة كندة وهي كندة وربيعة[9]. وجبانة الصّائدين لبني أسد وهم من قيس[10] وجبانة أثير الأسدي[11] وجبانة السّبيع وتنسب إلى ولد السّبيع بن سبع بن مصعب الهمداني[12] من أصحاب الإقطاع والرّئاسة. وجبانة ميمون نسبة إلى ميمون، مولى محمد بن علي بن عبد الله وهو أبو بشر بن ميمون صاحب الطّاقات ببغداد وبالقرب من باب الشّام[13]

سور الكوفة:

لقد استهدف من إنشاء الكوفة أن تكون قاعدة عسكرية هجومية تقيم بها عيالات المقاتلة وأهليهم ويستقر بها الجند بعد أوبتهم من الفتوح فلم تر الدّولة والحالة هذه حاجة إلى بناء الأسوار حولها كمعظم المدن الإسلامية، يضاف إلى ذلك أن المدينة كانت في طور النّمو السّريع الذّي يصعب حصر نطاقه، وظلت الكوفة على هذه الحالة حتى تولى المنصور الخلافة وبني بغداد ثمّ رأى أن يحصن الكوفة والبصرة فأمر ببناء سور لها يحيط بها وخندق[14] عليها من دون السور، وقد دفع نفقة البناء أهل الكوفة حيث أُخذَ من كل فرد منهم أربعون درهماً[15].

وقد فتح لهذا الخندق مجرى إلى الفرات ونصبت عليه القناطر من الزّوارق ذات الأبواب بغية تيسير المواصلات التّجارية وذلك في سنة ١٤٥هـ[16].

(١) اليعقوبي: البلدان ص٣١١.
(٢) البراقي: تاريخ الكوفة ص١٤٣.
(٣) اليعقوبي: البلدان ص٣١١، ماسنيون: خطط الكوفة ص١٩.
(٤) اليعقوبي: البلدان ص٣١١، ماسنيون: خطط الكوفة ص١٩.
(٥) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٨١، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص٣٦٨.
(٦) اليعقوبي: البلدان ص٣١١، ماسنيون: خطط الكوفة ص١٩.
(٧) ماسنيون: خطط الكوفة ص١٩١٩.
(٨) اليعقوبي: البلدان ص٣١١، ماسنيون: خطط الكوفة ص١٩.
(٩) اليعقوبي: البلدان ص٣١١.
(١٠) الطّبري، ج٢ ص٢٤٩، اليعقوبي: البلدان ص٣١١.
(١١) ماسنيون: خطط الكوفة ص١٩.
(١٢) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٨٠، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص٣٧٢.
(١٣) ابن الفقيه: مختصر البلدان ص١٨٤.
(١٤) ابن الفقيه: مختصر البلدان ص١٨٤.
(١٥) ماسنيون: خطط الكوفة ص١٨.
(١٦) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٨٧.

ويذكر ماسنيون في حديثه عن الكوفة قال «لم يكن في الكوفة بادئ الأمر سور أو خندق بل ما أجمعوا عليه هو وجود حفرة من الجهة الشّمالية الشّرقية (في منازل مزينة) وكانت هذه الحفرة تدعى مسناة جابر»[17]، ويبدو أن هذا السّور لم يكن له أثر يذكر في خطط المدينة كما أنه لم يعمر طويلاً ولما زارها ابن جبير سنة ٥٧٠هـ وصفها بقوله «وبناء المدينة بالأجر خاصة ولا سور لَها»[18] كانت الكوفة في الحقيقة مدينة كبيرة تبلغ مساحتها ستة عشر ميلاً وثلثي الميل مربعاً وكان فيها عدد كبير من المنازل يبلغ حوالي ألف دار للعرب وهم من ربيعة ومضر (وأربع وعشرون ألف) دار لسائر العرب (وستة آلاف دار) لأهل اليمن[19].

وبعد أن درسنا كل ما يتعلق بموقع الكوفة وتخطيطها، ودار الإمارة فيها وشوارعها وطرقاتها وأسواقها ومقابرها وكناستها وأسوارها وحدودها سنتحدث عن الحياة الاجتماعية فيها.

الباب الثاني

الحياة الاجتماعية في مدينة الكوفة

١- عناصر السكان وحياتهم الاجتماعية.

(أ) العرب.
(ب) الموالي (أهم الأدوار الّتي لعبوها في المجتمع الكوفي).
(ج) العبيد (تاثيرهم في مجتمع الكوفة)
(د) أهل الذّمة (اليهود والنّصارى)
(و) السّريان.
(هـ) النّبط

٢- بعض مظاهر الحياة الاجتماعية العامة الّتي اشترك فيها السّكان جميعاً.

الفصل الأوّل

عناصر السّكان وحياتهم الاجتماعية

في دراستنا للحياة الاجتماعية في الكوفة سنسير وفق منهج واضح معين ذلك أننا سنلاحظ أنّ عناصر السّكان في الكوفة طيلة هذه الفترة الّتي نعرض لها بالدّراسة لم تنصهر تماماً لتكون شعباً كوفياً متحد الصّفات والسّمات، ولعل هذا الإندماج قد تحقق في العصر العبّاسي، أمّا في هذا العصر فقد عاشت عناصر السّكان في معزل كل له حياته الخاصة وحقوقه وواجباته، لذلك نرى لزاماً أن نعرض لكل عنصر على حدة

(١٧) ماسنيون: خطط الكوفة ص١٨.
(١٨) ابن جبير: ص١٦٧.
(١٩) ياقوت: معجم البلدان ج٧ ص١٦٧.

متحدثين عن كيفية وفوده ووسائل إقامته وحياته الاجتماعية الخاصة بقدر ما تسمح به المراجع.

وبرغم هذه الفوارق البينة العناصر فسنجد ثمة مظاهر اجتماعية مشتركة تجمع بين هذه العناصر بوصفها تقطن حيزاً واحداً من الأرض، وستكون هذه المظاهر المشتركة من أهم عوامل اختلاط وانصهار هذه العناصر في بوتقة موحدة.

عناصر السّكان في الكوفة:

لقد كانت المدن العربية على العموم أممية يسكن فيها مزيج من أناس تختلف لغاتهم وتتباين ألوانهم وطباعهم وثقافاتهم وأديانهم وعادلتهم وعلى هذا فقد كانت الكوفة مدينة تكثر فيها العناصر وتتعدد، ترى فيها العربي إلى جانب الفارسي والنّبطي الموالي إلى جانب العبيد وغيرهم كما تعددت الأديان فترى المسلم بجانب المسيحي واليهودي.

هذا وسننظر إلى كل عنصر من هذه العناصر نظرة مستقة لنحدد له دوره الاجتماعي في حياة المدينة.

(أ)العرب:

نزل الكوفة من أشراف العرب من الصّحابة الأوّلين ووجوه النّاس[1] الّذين كانت لهم السّابقة في الإسلام قال ابن سعد: «لقد نزل الكوفة سبعون رجلاً من الصّحابة (وقيل ثمانون رجلاً)[2] ممن شهدوا بدراً وثلاثمائة من أصحاب الشّجرة[3]، فكانوا خلاصة المهاجرين والأنصار الّذين لهم السّبق في الإسلام».

وكان في مقدمة من نزلها من الصّحابة عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وقد أرسلهما عمر بن الخطاب ليكون عمار أميراً وعبد الله بن مسعود وزيراً ومؤذناً، وقد كان عمر بن الخطاب يقول لأهل الكوفة في تعريفه بهما «هما من النّجباء من أهل بدر فخذوا عنهما واقتدوا بهما وقد آثرتكم بعبد الله بن مسعود على نفسي»[4].

ثمّ هاجر إلى الكوفة الإمام علي بن أبي طالب ومكث فيها خمس سنوات مدة خلافته، يضاف إلى هذا العدد من الصّحابة عدد كبير من الفقهاء وأهل الدّين وتابعون عرفوا بالدّين والتّقوى ووفرة العلم وسعة الاطلاع وكثرة الحفظ وفي مقدمة هؤلاء التّابعين الّذين لهم الشّهرة الواسعة عامر بن شرحبيل الشّعبي وهو فقيه عالم محدث وله باع طويلة في الأدب[5] والرّواية وكان من التّابعين المشهورين أيضاً سعيد بن جبير الّذي كان مقرئاً ومفسراً وفقيهاً ومحدثاً أخذ عن عبد الله بن عبّاس، وكان هذا قد ولاه الحجاج قضاء الكوفة ثمّ عزله وقتله عندما خرج عليه مع ابن الأشعث[6] ويضاف إلى هؤلاء التّابعين إبراهيم النّخعي الّذي كان فقيهاً وعالماً.

ووفد إلى الكوفة عدد من قراء القرآن حتّى أصبحت هذه المدينة زعيمة أمصار العراق في الفقه والمعرفة.

كما سكن الكوفة من أشراف العرب في البيوتات العربية المعروفة[7] مثل[8]:

آل زرارة الدّارميون[9] (وهم من تميم).

وآل زيد الفزاريون[10] (من قيس عيلان).

وآل قيس الزّبيديون[11] (من مذحج).

وآل ذي الجدين الشّيبانيون[12] (وهم من بكر بن وائل).

وعلى هذا فقد تجمع في الكوفة رجال العرب وبيوتاتهم ووجوه النّاس فيهم.

أمّا القبائل العربية الّتي سكنت الكوفة فقد سبق أن ذكرنا بأنّ المصادر العربية لا تشير إشارة إليها إشارات واضحة كما أنّ كتب الأنساب لا تميز تمييزاً واضحاً بين القبائل والعشائر أو تشير قاطعة إلى وجود هذه القبيلة وتلك في الكوفة أو في البصرة أو غيرها على أنّ أهم القبائل الّتي سكنت الكوفة هي:

قبائل اليمن القحطانية وعدد نفوسها اثنا عشر ألف شخص[13] وهي: فضاعة، وغسان، وبجيلة، وخثعم، وكندة، وحضرموت، والأزد، ومذحج، وحمير، وهمدان والنّخع.

أمّا القبائل العدنانية وعددهم ثمانية آلاف شخص فهي: تميم، الرّباب، وبنو العصر، (وهي من مضر).

أمّا بني بكر فهم: بنو أسد، وغطفان ومحارب ونمير.

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٨٧، ابن سعد: الطّبقات الكبير ج٦ قسم١ ص١.

(٢) ياقوت: معجم البلدان ج٢ ص٢٩٧، البراقي: تاريخ الكوفة ص١٣٤، اليعقوبي: التّاريخ ج٢ ص١٢٧.

(٣) ابن سعد: الطّبقات ج٦ قسم١ ص٤.

(٤) ابن سعد: الطّبقات ج٦ قسم١ ص٣، ابن عبد الله: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ج٢ ص٣٣٦، ابن الفقيه: البلدان ص١٦٤.

(٥) الجاحظ: البيان والتّبيين ج١ ص٢٤٥.

(٦) ابن سعد: الطّبقات الكبير ج٦ قسم١ ص١٨٥، المبرد الكامل ج٢ ص٤٩٣.

(٧) ابن سعد: الطّبقات الكبيرة ج٦ قسم١ ص٦.

(٨) ابن الفقيه: البلدان ص١٧٦.

(٩) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٣ ص٢٣١، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص٢٦٧، ابن الفقيه: البلدان ص١٧١، ماسنيون: خطط الكوفة ص١٥.

(١٠) ابن الفقيه: البلدان ص١٧١، ماسنيون: خطط الكوفة ص١٥.

(١١) ابن الفقيه: البلدان: ص١٧١، ماسنيون: خطط الكوفة ص١٥.

(١٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٣ ص٣٣١، المبرد: الكامل ج١ ص٥٣، ابن الفقيه: البلدان ص١٧١، ماسنيون: خطط الكوفة ص١٥.

(١٣) عمر كحالة: معجم قبائل العرب ج١ ص١٥و ٦٣و ٣٠٥و ٣٣٠،وج٢ ص٩٩٨،ج٣ ص١٠٦٢، ١١٧٦، ١٣٢٥، ٨٨٤، ٩٥٧، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٩، ٤٥٤، وص٤٣٤و ٤٣٥و ٤٣٧و ٤٣٨و ٣٣٩و ٤٥٠، الطّبري ج٣ ص١٤٩، ١٥٢، ٥٢، ٦١، ٩٣، ١٢١، ١٢٦، ١٧٣، ٢١٤و ١٤٨ ج٢، ص٤١٥، ٥٤٣، ٨٨٨، ١٠٤٢، ١٠٨٣و ١١٩٥.

وهناك مجموعة أخرى مثل كنانة وجديلة وضبيعه، وعبد القيس، وتغلب وأياد، وطي وثقيف، وعامر، ومزينة.

وقد قسمت هذه القبائل في سكناها الكوفة إلى سبع أقسام سمي كل قسم منها (سبع) وقيل إن سعد بن أبي وقاص اضطر أحياناً في تنظيمه للقبائل أن لا يلتزم بنظام النسب أو القربى فكان يدخل في بعض القبائل عشائر عربية لا تمت إلى القبيلة بصلة النّسب حتّى إنه أدخل أحياناً وحدات من العجم ضمن وحدات القبائل العربية فنرى مثلاً أنه أدخل مع كنانة جديلة[1] كما أدخل بنو أسد وغطفان ومحارب ونمير وهم من بكر مع تغلب وضبيعه وهم من ربيعة[2]، ثم نرى أيضاً أن عبد القيس (وهم من أهل الهجر)[3] (وحمراء ديلم)[4] وهما من الفرس قد ضمتا إلى القبيلة العربية المعروفة (بني تميم)[5]. ويبدو أن سعد بن أبي وقاص لجأ إلى هذا العمل ليجعل إعداد القبائل في كل سبع متساوياً.

ولكن سعد بن أبي وقاص أدرك بثاقب بصره أن نظام الأسباع يكون أكثر صلاحاً إذا جمع بين القبائل المشتركة في النسب أو المرتبطة بروابط القربى فأرسل إلى قوم من نسابة العرب وذوي رأيهم وعقلائهم منهم (سعيد ابن نمران وشعلة بن نعيم فعدلوهم على الأسباع[6].

هذا وقد ذكر الطبرى أن نظام الأسباع في الكوفة في عهد سعد بن أبي وقاص كان على النحو التالي[7]:

١- كنانة وحلفاؤهم (الأحابيش) و(جديله)، وهؤلاء كانوا أعواناً طبيعيين للولاة القرشيين منذ أمارة سعد حتّى عمال بني أمية، وكان عددهم ضئيلاً بالنسبة لغيرهم يسمون بأهل العاليه.

٢- قضاعة، وغسان، وبجيله، وخثعم، وكنده، وحضرموت والأزد وهم من اليمانين وكانت السّيادة فيهم لطائفتين (بجيله ثم كنده)

٣- مذحج، وحمير، وهمدان، وحلفاؤهم (وهم كذلك من العناصر اليمانية الخاصة) وقد لعب هذا القسم دوراً كبيراً في حوادث الكوفة حيث كانت له المواقف المشرفة. التي اتسمت بالعداء الشّديد لبني امية ومساندة كاملة للصحابة.

٤- تميم، والرّباب، وبنو العصر (وهم من العناصر المضرية).

٥- بنو أسد، وغطفان، ومحارب، ونمير، وضبيعه وتغلب ومعظمهم من ربيعة.

٦- أياد، وعك، وعبد القيس (أهل الهجر) والحمراء (حمراء ديلم).

٧- طي: أن أغلب المصادر خالية من السّبع الأخير (طي) بالرّغم من وجودهم سبعاً مستقلاً في معركة صفين[8] ووجود سهم لهذه القبيلة في الغنائم والفئ منذ البداية.

هذا وبقيت الكوفة على هذا التّقسيم حتى مجيء الإمام علي بن أبي طالب بعد معركة الجمل سنة ٣٦هـ فغير نظام الأسباع هذا على النحّو التّالي[9]:

١-قيس وعبد القيس.

٢-تميم، وظبه، والرّباب، وقريش، وكنانة، وأسد.

٣-الأزد، وبجيله، وخثعم، والأنصار، وخزاعة.

٤-كنده، وحضرموت، وقضاعة، ومهرة.

٥-مذحج وأشعر (الأشعريون).

٦-همدان وحمير.

٧-طي.

وظلت الكوفة على هذا النّظام حوالي أربعة عشر عاماً حتى ولاية زياد بن أبيه سنة (٥٠هـ) فغير هذا النّظام وجعله على غرار ما كان عليه في البصرة حيث أصبحت هذه الأسباع أربع أقسام تسمى الأرباع وجعلها على النّحو التّالي[10]:

الرّبع الأوّل: أهل العالية (أهل المدينة).

الرّبع الثّاني: تميم وهمدان.

الرّبع الثالث: ربيعة (بكر) كندة.

الرّبع الرّابع: مذحج وأسد.

إن هذاالتقسيم الرّباعي الذّي أحدثه زياد لم يعد يعتمد على النّسب أو الحلف بين القبائل في كل ربع كما رأينا سابقاً. فقد تعمد المزج بين المجموعتين القبيلتين الأساسيتين (اليمانية والنزارية)[11].

---

(١) ماسنيون: خطط الكوفة ص١٠.

(٢) ماسنيون: خطط الكوفة ص١٠.

(٣) أهل الهجرة- وهم (عبد القيس) نزحوا من البحرين إلى الكوفة تحت قيادة رئيس من سلالة ملكية وهو زهرة بن حوية السّعدي. ماسنيون: خطط الكوفة ص١١.

(٤) حمراء ديلم: وهم الفرس المحاربين استسلموا بعد موقعة القادسية وكان يرأسهم رجل إسمه (ديلم) فسموا (حمراء ديلم) وقد نزلوا الكوفة وتحالفوا مع قبيلة أياد.
البلاذري: فتوح البلدان ص٢٧٩.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٧٩، ماسنيون: خطط الكوفة ص١١.

(٦) الطّبري جـ٣ ص١٥٢

(٧) الطّبري جـ٣ ص١٥٢، ماسنيون: خطط الكوفة ص١٠-١١.

(٨) نصر بن مزاحم: وقعة صفين ص١٣٢، الدّينوري: الأخبار الطّوال ص١٤٨.

(٩) نصر بن مزاحم: وقعة صفين ص١٣٢.

(١٠) الطّبري ١٥٢ جـ ٦ ص١٥٠.

(١١) يوسف خليف: حياة الشّعر في الكوفة ص١٢ (غير مطبوع).

وفي الرّبع الثّاني مزج زياد بين تميم النّزارية وهمدان اليمانية، وفي الرّبع الثالث مزج بين بكر النّزارية وكندة اليمانية. والرّبع الرّابع مزج فيه بين مذحج اليمانية وأسد النّزارية[1].

أما الرّبع الأوّل الذّي سمى (أهل العالية) فقد ظل على حاله لأن أصحابه كانوا أعواناً طبيعيين للولاة القرشيين منذ ولاية سعد حتى حكم بني أمية، كما أن عددهم كان ضئيلاً بالنسبة إلى غيرهم[2].

وقد ظل هذا النّظام معمولاً به حتى انحط شان الكوفة في أوائل القرن الرّابع الهجري[3]. وقد فرق زياد عند توليته الكوفة (حمراء ديلم) بين بلاد الشّام ومدينة البصرة..وأبقى في الكوفة قسماً قليلاً منهم[4].

لقد كان هذا التّقسيم الذّي ذكرناه نتيجة لظروف الحياة الجديدة وحشد مقاتلة القبائل، ووفقاً للقيادات، والتّعبئة العامة (وقت النّفير) والخروج للجهاد في المواسم ثمَّ توزيع الغنائم والأعطيات (بعد العودة)[5] من قبل رؤوس الأسباع.

وعلى هذا فقد كانت أسباع الكوفة (أو أرباعها) قطاعات قبلية مهمة وقد استعمل هذا النّظام في التّعبئة في عدد كبير من المعارك التي جرت في ذلك العصر، وظهر جلياً وواضحاً في جيوش مصعب بن الزّبير عندما هاجم مدينة الكوفة[6].

كما استعمل عمر بن سعد نظام الأرباع في قتاله مع الحسين بن علي حيث جعل لكل قبيلة ربعاً، فكان هنالك ربع كندة، وربع ربيعة، وربع تميم، وربع مذحج، وجعل على كل ربع قائداً[7].

كما خرج أهل الكوفة إلى البصرة والأهواز إمداداً لمحمد بن المهلب ابن أبي صفرة في قتاله ضد الخوارج فكانوا على نظام الأرباع حيث جَعلوا في كل ربع ألفين وعلى كل ربع قائداً[8].

إن هذه الأقسام أدخلت فيها كما قلنا سابقاً وحدات من العجم ضمن القبائل العربية، فأدخل مع (أياد وعك) عبد القيس والحمراء[9] وذلك لجعل عدد أفراد القبائل متوازياً.

أما تعداد كل قبيلة فلم يكن واضحاً لأن القبائل التي سكنت الكوفة لم تكن متساوية في العدد، فكان بعضها كبير العدد والآخر قليلاً كما أن عدد أفرادها قد يزيد أو ينقص تبعاً للأحوال السّياسية وحاجة الدّولة إلى نقل قسم من القبائل إلى مكان آخر، ولبس أدل على ذلك من نقل زياد ابن أبيه أربعين ألفاً من مقاتلة أهل البصرة والكوفة مع عيالهم وإسكانهم خراسان[10].

ويضاف إلى هذا أن هجرة العشائر لم تكن منتظمة إلى المدن وذلك لأن الهجرة لم تكن سهلة وميسورة في بعض الأحيان كما أن الأعداد كانت تزيد بزيادة الوافدين من أفراد العشائر من الصحراء أو تنقص نتيجة نقل الدّولة عدداً كبيراً منهم أو قتلهم في الحروب.

أما عن تعداد سكان الكوفة فليست لدينا إحصائيات دقيقة عنه وإنما وردت إشارات طفيفة في بعض المصادر فذكر ياقوت أن سكان الكوفة عند تخطيطها كانوا أربعين ألفاً[11] ثمَّ زاد سكان الكوفة بمرور الزّمن حتى بلغوا قبيل موقعة صفين (سبعة وخمسين ألفاً ومواليهم ومماليكهم ثمانية آلاف)[12]. إن هذه الإحصائيات لا يمكن الاعتماد عليها، وذلك لأن مجتمع الكوفة كان غير مستقر فهو عرضة للزيادة والنّقصان تبعاً لظّروف البلد العسكرية والسّياسية.

وعلى أساس هذا التّقسيم القبلي ظهرت عدة وظائف ومن الوظائف المهمة وظائف (رؤوس الأسباع) وهم رؤساء الأقسام السّبعة[13] التي قسمت بموجبها قبائل الكوفة عند تخطيطها. إن هذا التّنظيم أوجده سعد بن أبي وقاص كما رأينا سابقاً عندما كان أميراً على الكوفة، وقد ظلت الكوفة على هذه الأقسام السّبعة في الثلاثين سنة الأولى إلى أن غيرها زياد بن أبيه وجعلها أربعة أقسام[14].

وكان هؤلاء الرؤساء يختارون ممن لهم نفوذ شخصي كبير بين قبائلهم وممن لهم مكانة عالية في القبائل الأخرى. وكانت السّلطة التي تمتعوا بها مستمدة من مراكزهم وصفاتهم الشّخصية والاجتماعية واشترط أن يعرفوا بالبأس والنّجدة والتّجربة في الحرب وأن يكونوا فرسان النّاس ووجوههم وأولى الفضل منهم[15].

وقد زود هؤلاء بسلطة عسكرية وإدارية ومالية، فكانوا في أوقات السّلم يديرون شئون القبيلة ويحكمون في الخلافات والخصومات التي تحدث بين أفراد القبيلة، كما أنهم يوزعون العطاء عليهم بعد أخذه من الدّولة.

(١) يوسف خليف: حياة الشّعر في الكوفة ص١٢ (غير مطبوع).
(٢) ماسنيون: خطط الكوفة ص١٠.
(٣) ماسنيون: خطط الكوفة ص١٦.
(٤) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٧٩.
(٥) ماسنيون: خطط الكوفة ص٩.
(٦) البلاذري: أناب الأشراف، جـ ٤ قسم ٢ ص١١٢.
(٧) الطّبري جـ٧ ص١٤٦، البلاذري: أناب الأشراف، جـ٥ ص٢٥١.
(٨) الطّبري، جـ٧ ص ٢٠٧، المبرد: الكامل جـ٣ ص١١١٨.
(٩) ماسنيون: خطط الكوفة ص١١.
(١٠) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٠٠.
(١١) ياقوت: معجم البلدان جـ٧ ص٢٩٧ ط مصر١٩٠٦م.
(١٢) ابن قتيبة: الإمامة والسّياسة جـ١ ص١٤٨.
(١٣) الطّبري، جـ٣ ص١٥٢، ماسنيون: خطط الكوفة ص١٠-١١.
(١٤) الطّبري، جـ٣ ص١٥٣.
(١٥) الطّبري، جـ٧ ص٢٠٧

وهم المسؤولون عن تصرفات قبائلهم مسئولية فعلية تجاه الوالي أو الأمير بصورة مباشرة وهم الرّادعون لفتنها وأعمالها المعادية للدّولة. كما أنهم الواسطة بين القبيلة وبين الأمير في نقل تعاليمه إليهم.

هذا وقد كان لرؤساء (الأسباع) أهمية كبيرة جداً في أوقات الأزمات السّياسية، فقد خرج رؤوس الأخماس من البصرة إلى الكوفة (في مكان يدعى النخيلة) مع أبي الأسود الدّوئلي مؤيدين علياً في حربه ضد معاوية معلنين ولاءهم وولاء أهل البصرة لعلي بن أبي طالب وذلك قبل بداية معركة صفين[١] كما أن الحسين بن علي أرسل رسائل إلى رؤساء الأسباع في الكوفة يدعوهم إلى تأييده ونصرته في مناهضة الحكم الأموي[٢].

كما أرسل المختار الثّقفي رسائل أيضاً لرؤساء الأسباع في الكوفة عندما ثار علي بني أمية. أما في أوقات الحرب فكانوا قادة لأسباعهم فقد قاد رؤساء الأسباع في الكوفة أسباعهم في حرب صفين.

كما أنهم كانوا يقودون الحملات الكبيرة المنتظمة وكانوا يتمتعون بسلطة إدارية وعسكرية واسعة، كما أن هؤلاء الرؤساء في بعض الأحيان كانوا يقودون حملات عسكرية صغيرة من تلقاء أنفسهم. أشار الطّبري إلى أن رؤساء الأخماس في البصرة في عهد مصعب بن الزّبير قد شنوا هجوماً على الكوفة في حربه مع المختار[٣].

كما أن المختار شن حملة مماثلة قادها رؤساء الأسباع ووجهها لقتال مصعب ابن الزّبير[٤].

كان رؤساء الأسباع في الكوفة عادة خاضعين مباشرة لسلطة الأمير أو الوالي الذّي يحكم المصر حيث نجد الولاة يتصلون بجمهور النّاس عن طريق زعماء القبائل ورؤساء أسباعهم.

لقد وجدت الدّولة أن هذا النّظام قد يساعد على ضبط العطاء وتوزيعه بالنسبة لكثرة عدد أفراد القبيلة. فكان لا بد من إيجاد نظام جديد يلائم ظروف العصر الجديدة فأوجدوا وحدات اجتماعية صغيرة جديدة أصغر من الرّبع أو السّبع لا علاقة لها بالنسب أو القربى، فنشأ نظام «العرافات» وقد خصص لكل عرافة مبلغ من المال يوزع على أفرادها توزيعاً عادلاً يعينه الأمير أو القائد، وقد يختلف مقدار هذا المال من معركة إلى أخرى ومن وقت لآخر.

(١) نصر بن مزاحم: وقعة صفين ص١٣١.
(٢) البلاذري: أنساب الأشراف جـ٥ ص٢٤٥.
(٣) الطّبري، جـ٢ ص١٤٧.
(٤) الطّبري، جـ٢ ص١٤٧.

وقد أشار الطّبري إلى معركة القادسية وإلى عرافاتها وعن مقدار المال الّذي خصصه سعد بن أبي وقاص لكلّ عرافة فقال: «وعرفوهم على مائة ألف درهم فكان لكل عرافة في القادسية خاصة ثلاثة وأربعون رجلاً وأربعون امرأة وخمسون من العيال لهم مائة ألف درهم، وكلّ عرافة من أهل الأيّام عشرين رجلاً على ثلاثة آلاف، وعشرين امرأة وكلّ عيل على مائة ألف درهم وكلّ عرافة في الرّدفة الأولى ستين رجلاً وستين امرأة وأربعين من العيال ممن كان رجالهم ألحقوا على ألف وخمسمائة على مائة ألف درهم ثمّ على هذا من الحساب. وعلى مثل ذلك هذا العطاء يدفع إلى أمراء الأسباع وأصحاب الرّايات (والرّايات على أيادي العرب) ويدفع أمراء الأسباع هذا العطاء إلى العرفاء والنّقباء والأمناء فيدفعون إلى أهلهم في دورهم»[٥].

وقد استعمل سعد بن أبي وقاص هذا النّظام في موقعة القادسية رغبة منه في جعل الجيش أشد صلابة وتلاحماً وانسجاماً وكان سعد ينظر إلى هذه الكتلة كلّها نظرته إلى جماعة واحدة لا انقسام بينها ولا تفريق.

وعلى هذا فقد أملت ظروف العرب العسكرية والاجتماعية والاقتصادية في الكوفة ضرورة تقسيم القبائل الكبيرة إلى وحدات صغيرة ليسهل توزيع العطاء على أهل العطاء، وتنظيم عمليات القتال ولتسهيل إدارة هذه الوحدات.

ومن الموظفين الّذين كان يعتمد الأمير عليهم بعد رؤوس الأسباع في توزيع العطاء والسّيطرة على السّكان وفي إدارة المنطقة، العرفاء، ولم يكن نظام العرفاء هذا جديداً، فقد كان هذا النّظام موجوداً منذ العصر الجاهلي، كما أنّه قد وجد في زمن الرّسول وليس أدل على ذلك من قول الرّسول «أفلحت يا قديم إن لم تكن أميراً ولا جابياً ولا عريفاً»[٦].

وقال الرّسول أيضاً «إنّ العرافة حق ولا بدّ للنّاس من العرفاء ولكنّ العرفاء في النّار»[٧].

كما أنّ هذه العرافات وجدت في زمن أبي بكر وعمر بن الخطاب وعثمان فقد أشار الطّبري إلى أنّ سعداً قبيل موقعة القادسية في منطقة شراف «قدر النّاس وعباهم بشراف وأمر أمراء الأجناد وعرف العرفاء، فعرف على كل عشرة، رجلاً كما كانت العرافات في أزمان النّبي وكذلك كانت إلى أنّ فرض العطاء وعشر النّاس وأمر على الأعشار رجالاً من النّاس لهم وسائل في الإسلام»[٨].

(٥) الطّبري، جـ٣ ص١٥٢.
(٦) أبو داود: السّنن، جـ٣ ص١٣١، ابن حنبل: المسند جـ٤ ص١٣٣.
(٧) أبو داود: السّنن، جـ٣ ص١٣٢.
(٨) الطّبري: جـ٣ ص٨، محمّد حميد الله خان: مجموعة الوثائق السّياسية ص٢٣٠.

ووجدت العرافات أيضاً في عهد الإمام علي بن أبي طالب[1] وروى عن علي أنّه قال: «أنّها ساعة لا يدعوُ عبد إلاّ استجيب له فيها إلاّ أن يكون عريفاً أو شرطياً أو جابياً أو عشاراً»[2].

هذا وقد أعيد تنظيم هذه العرافات في زمن زياد بن أبيه في العراق بشكل جديد.

وقد كان لكلّ عريف واجبات خاصة فهو القائم على أمور القبيلة أو عرافته يتعرف أحوالهم، وهو الّذي يوزع العطاء ويدفعه إلى أهله في دورهم[3]، وقد يزيد في العطاء أو ينقص وينظم سجلات بأسماء النّساء والأطفال والمقاتلة وتجهيزاتهم ومقدار أعطياتهم وعدد مواليهم[4].

كما أنّ العريف يسجل موت من يموت ومولد من يولد يحذف عطائه أو إضافته كما أنّ العرفاء كانوا مسؤولين مسؤولية كاملة عن الأمن والنّظام في عرافتهم فهم يراقبون مسببي الاضطرابات والفتن والمشاغبين كما أنّ العرفاء كانوا مسؤولين عن الدّيات الّتي تطلب من أفراد عرافاتهم.

أمّا في أوقات الحرب[5] فقد كانوا يندبون النّاس للقتال ويحثونهم على الحرب ويضربون على النّاس البعث ويخبرون الأمير عن الأشخاص الّذين يتقاعسون أو يتخلفون عن القتال أو الّذين يتمردون عليه[6]، كما أنّهم يساعدون الأمير في سيطرته على الجيش وتعبئته وتوجيهه الوجه المطلوبة وإيصال أوامر الأمير إلى المقاتلين وتعليماته في سيرهم للحرب أو نزولهم للرّاحة والانتظار[7] وغيرها كما أنّ هؤلاء العرفاء كانوا يقودون عرافاتهم في أوقات الحرب ضمن الأسباع وأنّهم كانوا واسطة بين رؤساء الأسباع وأعشارهم في إيصال التّعليمات والأوامر الصّادرة عنهم.

وإذا قصر هؤلاء العرفاء بواجبهم فإنّ الحكومة تنزل بهم عقوبات صارمة أو تنحيهم عن عملهم نتيجة لإهمالهم[8].

لذلك كان لا بدّ أن يتصف العريف هذا بصفات معينة تؤهله لهذا المنصب فكان ينبغي أن يكون ذا شخصية قوية وأن يكون شجاعاً وأنّ يتصف بالدّهاء والحلم وأن يتمتع بسلطات تمكنه من تنفيذ واجباته وأعماله المطلوبة بشكل مرضي[9].

(١) ابن سلام: الأموال ص٤٤.
(٢) الأصفهاني: حلية الأولياء جـ١ ص٧٩.
(٣) الطّبري، جـ٣ ص١٥٢.
(٤) الطّبري، جـ٧ ص٢٠٧.
(٥) الطّبري: جـ٧ ص٢١١.
(٦)الطّبري: جـ٧ ص٢٢٦.
(٧) الطّبري: جـ٧ ص٢٤٠.
(٨) الأصفهاني: الأغاني جـ٢ ص١٧٩.
(٩) صالح العلي: التّنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص٩٩.

ويكون تعيين العريف عادة من قبل الأمير ويظل هذا العريف في وظيفته هذه مادام الأمير راضياً عنه ولا يهمه إن غضب النّاس عليه أم لم يغضبوا، وليس أدل على ذلك من رسالة أرسلها عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن ارطاة وإلى البصرة قال فيها: «أنّ العرفاء من عشائرهم بمكان، فانظر عرفاء الجند فمن رضيت أمانته لنا ولقومه فاثبته ومن لم ترضه فاستبدل به من هو خير منه وأبلغ في الأمانة والورع»[10].

هذا وقد كان عدد العرفاء في الكوفة مائة عريف[11]، والعريف عادة يكون على عشرين رجلاً أو ثلاثين أو أربعين أو ستين[12] رجلاً وبعضهم على عشرة على حسب طبقات الجند من حيث السّابقة[13]، والعريف يكون مكروهاً من النّاس مذموماً بسبب تعسفه وظلمه وجوره واستغلال وظيفته استغلالاً بشعاً، وليس أدل على ذلك من قول الرّسول ينهي النّاس أن يكونوا عرفاء فقال: «أفلحت يا قديم إن لم تكن أميراً ولا جابياً ولا عريفاً»[14].

وقال أيضاً في ذم العريف: «إنّ العريف حق ولا بدّ للنّاس من العرفاء ولكن العرفاء في النّار»[15].

وقد روى عن علي بن أبي طالب أنّه ذم العريف بقوله «إنّها ساعة لا يدعو عبد إلاّ استجيب له فيها إلاّ أن يكون عريفاً أو شرطياً أو جابياً أو عشاراً»[16].

وعندما توفي أبو ذر الغفاري قال: «أنشدكم بالله أن لا يكفني رجل كان أميراً أو عريفاً أو بريداً»[17].

وأغلب الظّن أن وظيفة العريف كانت مكروهة بهذا الشّكل لاستغلالهم وظيفتهم وتعسفهم وجورهم، وذكر البلاذري[18] «أنّ شجاراً وقع بين امرأة من أهل المدائن، وبين عريفها فأسقط اسمها من الدّيوان فجاءت إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز تشكو هذا العريف، فكتب إلى وإلى المدائن يطلب فيها إعادة عطائها».

وقد تطلبت الحياة القبلية في الكوفة استحداث وظيفة (المنكب) وقد أشار البلاذري إلى أنّ هذه الوظيفة أنشئت زمن زياد بن أبيه[19] وقيل في زمن عبيد الله بن زياد[20]، وهذه الوظيفة كانت أقل من وظيفة العريف وقيل أنّ المنكب معاونه[21].

(١٠) ابن سعد: الطّبقات الكبير جـ٥ ص٢٩٣.
(١١) الطّبري: جـ٣ ص١٥٢.
(١٢) نفس المصدر.
(١٣) الطّبري: جـ٣ ص٩.
(١٤) أبو داود: السّنن جـ٣ ص١٣١، ابن حنبل: المسند ج٤ ص١٣٣.
(١٥) أبو داود: السّنن جـ٣ ص١٣١.
(١٦) الأصفهاني: حلية الأولياء جـ١ ص٧٩.
(١٧) ابن الأثير: أسد الغابة جـ١ ص٣٠٢.
(١٨) البلاذري: أنساب الأشراف جـ٧ ص٤٦٤ (مخطوط).
(١٩) البلاذري: أنساب الأشراف جـ٧ ص٤١٥ (مخطوط).
(٢٠) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ٥ ص٨.
(٢١) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ٥ ص٨.

وقد وجدت وظيفة أخرى مثل (النّقيب) وقيل إنّها أقل من العريف[1].

أثر الفتح الإسلامي في اختلاط القبائل العربية في الكوفة:

لقد كان خروج العرب من الجزيرة العربية إلى العراق بسبب الفتح مقدمة لعملية الاختلاط فقد كان هذا الخروج يتخذ شكلاً جديداً بعيداً كلّ البعد عن التّجمع القبلي أو العصبية القبلية لأوّل مرّة في التّاريخ العربي فكان الانتداب للحرب، والجهاد لا يتخذ شكلاً قبلياً لأنّ الخليفة عندما كان يستنصر القبائل على الجهاد ويرغب النّاس فيه ويحثهم عليه كانت الجموع تتوافد على المدينة من كلّ حدب وصوب من أنحاء الجزيرة العربية فتجتمع هذه الوفود ليرسلها إلى الجهة الّتي يراها بحاجة إلى مدد فيمدها بالجنود بعد أن يعين أميراً عليهم وقد ذكر الطّبري[2] أنّ «أمير المؤمنين كان إذا اجتمع إليه جيش من أهل الإيمان أمر عليهم رجلاً من أهل العلم والعفة فاجتمع إليه جيش فبعث عليهم سلمة».

كان لهذه الفتوحات أثر كبير في مزج القبائل وصهرها في بوتقة الإسلام انصهاراً كاملاً وتكوين طابع جديد يميزها تمييزاً واضحاً عن طابعها القبلي القديم الّذي تميزت به قروناً عدّة، وليس أوّل على ذلك من قول الطّبري[3] «وتتابع أهل العراق من أصحاب الأيّام الّذين شهدوا اليرموك ودمشق ورجعوا محدين لأهل القادسية فتوافوا بالقادسية من الغد وبعد الغد وجاء أوّلهم يوم أغواث وأخرهم من بعد الغد من يوم الفتح، قدمت إمداد فيها مراد وهمدان ومن أفناء النّاس».

أنّ هذا يدلنا دلالة واضحة على أنّ العرب لم يخرجوا للفتح على أساس قبلي أو فردي أو على نطاق القبيلة حيث أنّ «أهل العراق من أصحاب الأيّام» لم يكونوا قبيلة واحدة وإنّما كانوا من قبائل متعددة خرجوا مؤمنين برسالة سامية يحدوهم الأمل في نشرها والدّفاع عنها.

ومن العوامل الأخرى الّتي ساعدت على الاختلاط أنّ المحاربين في الجيش الإسلامي كانوا يستصحبون نساءهم إلى جهات القتال نظراً لحاجتهم الماسة إليهن ولاسيما عندما كانت تطول مدّة القتال فقال الطّبري[4]: «لم يكن من قبائل العرب أحداً أكثر امرأة يوم القادسية من بجيله، والنّخع، كان في النّخع سبعمائة امرأة فارغة وفي بجيله ألف وأنّ هؤلاء وهؤلاء صاهروا أحياء العرب وأنّ المهاجرين تزوجوهن حتّى استوعبوهن وأنّ النّخع وبجيله كانت تسمى لذلك أصهار العرب وأختان المهاجرين».

إنّ هذا التّزاوج أدى بلا شك إلى توسيع روابط القبيلة الواحدة مع عدد من القبائل بعد أنّ كانت روابط الزّواج تكاد تكون محصورة في قبيلة واحدة.

ثم تتابعت مظاهر الاختلاط بين القبائل حين استقرت في المدن واختلط بعضها ببعض اختلاطاً واضحاً فكان أعمق مدى وأبعد أثر لاشتراكها في حياة مدينة واحدة، حتّى أنّ سلطة القبائل السّياسية وروابطها القائمة على أساس علاقة الدّم تاثرت كثيراً بعد استقراها في المصر وخضوعها لسلطة الأمير العليا الّتي لم تكن تستمد قوتها من رابطة الدّم[5].

ومن العوامل الأخرى الّتي أدت إلى إضعاف الرّوابط القبلية الدّين الإسلامي الّذي يدعو إلى الإخوة والمساواة بين معتنقيه بصرف النّظر عن أصلهم وجنسهم ولونهم وخلقهم، وليس أدل على مدى الاختلاط في الكوفة من أن نقرأ أسماء القبائل الّتي نزلتها، فنجد فيها قبائل من الشّمال وقبائل من الجنوب، ومن نجد ومن الحجاز، قبائل من مضر وأخرى من ربيعة، وغيرها.

وبذلك محيت الفروق المكانية بين القبائل كما أنّها حاولت أن تمحي الفروق الأخرى أو تخفف من حدتها، فربطت بين بعض القبائل ولم تدع كلّ قبيلة أن تعيش وحدها فكونت كتل جديدة تسمى الأسباع حيث قسم سعد المدينة إلى سبعة أقسام، ومما لا شك فيه أنّ هذا التّقسيم الجديد أدى إلى صياغة المجتمع الكوفي صياغة جديدة:

ولمّا تولّى زياد بن أبيه أمر الكوفة خطى خطوات واسعة أخرى نحو التّجمع فدمج القبائل في بعضها بشكل أقوى بكثير مما قام به سعد فعدل زياد هذه الأسباع فجعلها أرباعاً، ومزج القبائل المختلفة داخل كلّ ربع هادفاً في ذلك إضعاف الرّوح القبلية، وصار هذا أقرب إلى توحيد القبائل وتجمعها، كما قصد زياد في هذا التّقسيم إلى تثبيت دعائم الحكم ونشر الأمن والنّظام في ربوع الكوفة، وأراد بذلك أيضاً المحافظة على وحدة الجيش وتماسكه والابتعاد به عن العصبية القبلية الّتي تمزقه وتشتت شمله إذا ما تفشت به وسطرت عليه[6].

إنّ هذه الخطوات الّتي اتخذها زياد في دمج القبائل العربية مع بعضها في الكوفة كان لها أعظم الأثر في نفوس القبائل العربية الّتي سكنت الكوفة حيث أخذت تهيؤها نفسياً لتدرك أنّ الحياة المدنية شيء آخر غير الحياة البدوية الّتي تعود عليها العرب في حياتهم الأولى في الجزيرة العربية فكانت بداية للون

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ٥ ص٨

(٢) الطّبري، جـ٣ ص٩٠.

(٣)الطّبري، جـ٣ ص٨٤

(٤)الطّبري، جـ٣ ص٨٢

(٥) صالح العلي: التّنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص٤٣.

(٦) يوسف خليف: حياة الشّعر في الكوفة ص١٩ (غير مطبوع).

جديد في الحياة المدينة تربط بينها وشائج المدينة وعلائق الاجتماع وروابط الحياة الحضارية الجديدة[1].

إنّ الحياة الاجتماعية لعرب الكوفة لم تبق على ما تركها عليه زياد في دمج القبائل وإنّما أخذت تتحول إلى شكل جديد آخر بحكم الحياة الجديدة المستقرة.

إنّ سكنى القبائل العربية في الكوفة جنباً إلى جنب جعلهم يشعرون أنّهم أبناء مدينة واحدة تفرض عليهم نوعاً من العلاقات الاجتماعية جعلهم يشعرون بأنّهم وحدة متجانسة متشابهة الملامح والسّمات فبدأ يتسرب إلى نفوسهم إحساس بالمدينة، ولكن هذا الإحساس لم يقض على إحساسها المتاصل بالقبيلة وإنّما ظل رواسب لا شعورية في أعماق تفكيرها، أي تحولت العصبية القبلية إلى عصبية للمدينة الّتي سكنوها[2].

ومن هنا بدأت تظهر ظاهرة جديدة بعد تحوّل الحياة القبلية إلى حياة قبيلة تؤمن بالمدينة نستطيع أن نسميها (الإقليمية) أو التّاقلم. وهي أن تسمى القبيلة مثل تميم الكوفة وأزد الكوفة وتميم البصرة وأزد البصرة[3]. وليس أدل على ذلك من قول المبرد فقال«لقد حدثت فتنة في البصرة بين الأزد وربيعة بعد وفاة يزيد وكادت أن تنشب الحرب بينهم وقد استطاع الأحنف بن قيس أن يهدئ هذه الفتنة فقال يا معشر الأزد وربيعة أنتم إخواننا في الدّين وشركاؤنا في الصّهر وأشقاؤنا في النّسب وجيراننا في الدّار ويدنا على العدو، والله لأزد البصرة أحب إلينا من تميم الكوفة وأزد الكوفة أحب إلينا من تميم الشّام[4].

لم يقف تطور العرب إلى هذا الحد من الشّعور بالعصبية القبلية والمدينة معاً وإنما تعداه إلى أبعد من ذلك، حيث قطع العرب خطوات كبيرة نحو التّجمع في الكوفة بعد أن ذابت الفروق المكانية بين القبائل فصار الشّعور بالمدينة وحدها فوق كل شيء وإن كتب التّاريخ تذكر لنا أمثلة كثيرة على ذلك فتقول «سار أهل الكوفة، وجاء أهل البصرة، وقاتل أهل الكوفة أهل البصرة» دون ذكر اسم القبيلة التي تسكن ذلك المصر.

إن إنشاء المدن في الحقيقة تجربة جديدة رائدة في حياة العرب الاجتماعية فكانت على الرغم من كل شيء موفقة في مقاصدها ناجحة في أهدافها ومراميها، على الرّغم من أنها نكصت على عقبيها في بعض الأحيان لسوء السّياسة التي اتبعها بعض الخلفاء والولاة أو نتيجة لبواعث الفتنة والشّقاق التي تؤججها نار التّحزب والطّائفية وغيرها.

(١) يوسف خليف: حياة الشّعر في الكوفة ص١٦ (غير مطبوع).
(٢) أحمد أمين: فجر الإسلام جـ١ ص٢٢٣.
(٣) المبرد: الكامل، جـ١ ص١٢٢، الجاحظ: البيان والتّبين، ج٣ن٢ ص١٤٠.
(٤) نفس المصدر السّابق.

قد عاش هؤلاء العرب في الكوفة حياة اجتماعية خاصة لم تختلف كثيراً عن لون حياتهم في شبه الجزيرة العربية قبل قدومهم إلى العراق ولم ينفرد عرب الكوفة هؤلاء بلون مختلف في الحياة الاجتماعية إلا في أواخر العصر العباسي وعلى أي حال نستطيع أن نعطي صورة عن المجتمع العربي الأوّل في نواحي الزّواج والطّلاق والملابس والطعام والوفاة والجنائز...

الزّواج والطلاق:

كان الزّواج عند أهل الكوفة شانه شان الزّواج عند العرب، فكان يتمّ بالخطوبة ثمّ عقد القران، وكان على الزوج أن يدفع مهراً أو «صداقاً»[5] ولم يحدد مقدار المهر بشكل واضح. وقد اختلف مقداره في الكوفة بالنّسبة لحالة الزّوجين الاجتماعية. وروى أن الرّسول أعطى مهراً لبعض زوجاته أربعمائة درهم[6]. وقد طلب عمر بن الخطاب أن لا يزيد المهر على خمسمائة درهم. وروى أنه قال «لا تغالوا في صدقات النّساء فإنه لو كان تقوى الله أو مكرمة في الدّنيا كان نبيكم(ص) أولاكم بذلك، ما أصدق نساءه ولا بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية، وهي ثمانون وأربع مائة درهم[7].

ومما لا شك فيه كانت الطّبقات الفقيرة تدفع أقل من ذلك المهر بكثير.

وقد زوج سعيد بن المسيب إحدى بناته على درهمين من ابن أخيه[8].

كما كان الفرد من أهل الكوفة يستطيع الزّواج بدرهم واحد[9].

أما الأغنياء المترفون فكانوا يدفعون مهوراً ضخمة أضعاف ذلك المبلغ الذّي حدده عمر بن الخطاب. فقد دفع مصعب بن الزّبير مهراً لسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة نصف مليون درهم لكل منهن[10]. وعندما قتل مصعب تزوجت عائشة عمر ابن عبيد الله بن معمر التّيمي لما قدم الكوفة فأصدقها خمسمائة ألف درهم وأهداها خمسمائة ألف أخرى[11] (أي نصف مليون درهم) وقد دفع الحجاج ابن يوسف الثّقيفي مهراً لهند بنت أسماء مائة ألف درهم وثياباً كثيرة وجواري وغلمان[12]. وقد تزوج محمد بن سيرين امرأته

(٥) أبو داود: السّنن ج٢ ص٢٣٤، دموميين: النّظم الإسلامية ص١٧٤.
(٦) ابن سعد: الطّبقات الكبيرة ج٨ ص١١٦.
(٧) ابن سعد: الطّبقات الكبيرة ج٨ ص١١٥-١١٦.
(٨) ابن سعد: الطّبقات الكبيرة ج٥ ص١٠٢، ابن قتيبة: عيون الأخبار ج٤ ص٧٠.
(٩) ابن قتيبة: عيون الأخبار ج١ ص٧٠.
(١٠) الأصفهاني: الأغاني ج١٠ ص٥٣ ج١٤ ص١٦١.
(١١) الأصفهاني: الأغاني ج١٠ ص٥٥.
(١٢) الأصفهاني: الأغاني ج١٨ ص١٣٩.

السدوسية بعشرة آلاف درهم[١] وتزوج عمر بن الخطاب أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب على أربعين ألف[٢] درهم وقيل بعشرة آلاف درهم[٣].

وقد تزوج رجل في الكوفة من (بني أسد) امرأة من كندة على مهر قدره ألفا درهم أن تركها في دارها وأربعة آلاف إن أخرجها من دارها[٤].

وقد زوج شبرمة (قاضي الكوفة) ابنه على ألفي درهم[٥]. وتزوج آخر في الكوفة أيضاً بمهر قدره ستمائة درهم[٦].

أما إذا طلق الرّجل المرأة فيجب أن يدفع مؤخر الصّداق كاملاً أو يمتعها.

وقد اختلف الفقهاء اختلافاً كبيراً في تحديد مقدار المتعة فقال ابن عباس «المتعة أعلاها خادم أو نفقة وأدناها كسوة».

وقال الشّعبي: «أوسط المتعة للمرأة كسوتها في بيتها ودرعها وخمارها وجلبابها ومنطقها وإزارها وملحفتها[٧].

وعندما طلق شريح القاضي زوجته كبشة بنت الحارث متعها بخمسمائة درهم[٨]. ومتع الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان زوجته سكينة بنت الحسين بعشرين ألف دينار عندما طلقها[٩].

الملابس:

لقد كان لباس العرب عادة بسيطاً جداً كالقميص والحلة[١٠] والأزار والشّملة[١١] والمطوف[١٢]، والعباءة والجلباب والكساء والحبرة[١٣] والمرط[١٤] والشّرب[١٥] والرّدف[١٦] والخميصة[١٧] والسحولي[١٨] والسّايري[١٩] والكرباس[٢٠] والكوفية والعمامة وغيرها.

ولم يكن العرب من سكان البادية يعرفون السّراويل أو (الشّراويل) في ذلك العصر حيث كان هذا من لباس الفرس وأهل الذّمة روى الشّوكاتي عن أبي إمامة قال «قلنا يا رسول الله إن أهل الكتاب يتسرولون ولا يأتزرون»[٢١].

وقد شاع لبس السّراويل في الكوفة واعتبرت السّراويل ملبساً مفضلاً وقيل «إن الحكمة في لبس السّراويل أنه ساتر العورة وهي ما بين السّرة والرّكبة»[٢٢].

وما كاد العرب يستقرون في بلاد العراق حتى اختلطوا بالفرس وغيرهم من أهل الأمصار فتأثرت ملابسهم تأثيراً كبيراً بما لديهم من مدنية واسعة وترف ورخاء عريض.

ولقد لبس الكوفيون الملابس الغالية الثّمن عندما انغمسوا في التّرف فلبسوا الحرير على أنواعه وتفننوا بأنواع المنسوجات (كالملحم والعتابية والسّقلاطون)[٢٣].

كما لبس العرب (السّدوس، والسّاج والطيلسان)[٢٤] وقد أحب الأمراء الوشي الكوفي فقلدهم النّاس في ذلك فشاعت المنسوجات الموشاة في أيامهم وقد أشار المسعودي إلى انتشار صناعة الوشي في الكوفة في عهد سليمان ابن عبد الملك فقال «ولبس النّاس جميعاً الوشي جباباً وأردية وسراويل وعمائم وقلانس وكان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته إلا في الوشي وكذلك عماله وأصحابه ومن في داره وكان لباسه في ركوبه وكان لا يسمح لأحد في الدّخول عليه حتى خدمهُ إلا في الوشي»[٢٥]

لذلك اختلفت ملابس أهل الكوفة اختلافاً كبيراً حسب درجته الاجتماعية ومهنته ومركزه السّياسي حتى أصبح لكل طبقة من طبقات المجتمع زيٌّ خاصٌ يميزها عن غيرها كما أصبح لكل مناسبة من المناسات زي معين[٢٦].

أشار الجاحظ إلى اختلاف هذه الملابس والأزياء فقال «وقد يلبس النّاس الخفاف والقلانس في الصّيف كما يلبسونها

---

(١) ابن قتيبة: عيون الأخبار ج٤ ص٧١.
(٢) ابن قتيبة: عيون الأخبار ج٤ ص١٢٧.
(٣) اليعقوبي: التّاريخ ج٢ ص١٢٧.
(٤) وكيع: أخبار القضاة ج٢ ص٢٦٥.
(٥) وكيع: أخبار القضاة ج٢ ص١١٨.
(٦) وكيع: أخبار القضاة ج٢ ص٢٣٢.
(٧) وكيع: أخبار القضاة ج٢ ص٣٢٤.
(٨) وكيع: أخبار القضاة ج٢ ص٢٢٤.
(٩) الأصفهاني: الأغاني ج١٤ ص١٦٢.
(١٠) الحلة: ثوبين اثنتين، الثعالبي: فقه اللغة ص١٥٦.
(١١) الشّملة: ثوب منسوج من الوبر Dozy،788.p
(١٢) المطرف: كساء في طرفيه علمان، الثّعالبي: فقه اللغة ص١٥٨.
(١٣) الحبرة: برد يماني يكون من كتان أو قطن وسميت حبرة لأنها محبرة (أي مزينة) ويكون ذو حمرة تضرب إلى السّواد، المبرد: الكامل ج٢ ص٢٥٥.
(١٤) المرط: كساء من صوف أو خز. ((الحمع)) مروط وقيل كساء من خز أو كتان الشّوكاني. نيل الأوطار ج٢ ص١٥٦.
(١٥) الشّرب: مارق من الكتان- الثّعالبي: فقه اللغة ص١٥٦.
(١٦) الرّدف: ما غلظ من الخز- الثعالبي: فقه اللغة ص١٥٦.
(١٧) الخميصة: ملاءة من خز أو صوف يؤتز بها- الثّعالبي: فقه اللغة ص١٥٧
(١٨) السحولي: كل ثوب مصنوع من قطن أبيض، الثّعالبي: فقه اللغة ص١٤.
(١٩) السّابري: إذ كان لابسه بين المكتسي والعريان- الثّعالبي. فقه اللغة ص١٥٥.
(٢٠) الكرباس: قميص الأبيض الغليظ.
(٢١) الشّوكاني: نيل الأوطار ج٢ ص٨٨
(٢٢) المبرد: الكامل ج١ ص٣٥٨.
(٢٣) survey:pope persionart of.vol .III.p .1946 الملحم، وهي ثياب سداها من الحرير ولحمتها من القطن Dozy،113.p العتابية، وهي ثياب مخططة تصنع من خيوط القطن والحرير Dozy،4136.p.
(٢٤) الطّيلسان والسّاج والسّدوس. مايتدثر به من ثياب النّوم- الثّعالبي: فقه اللغة ص١٤٧.
(٢٥) المسعودي: مروج الذّهب ج٣ ص١١١.
(٢٦) الجاحظ: البيان والتّبين ج٣ ص١٠٣.

في الشّتاء إذا دخلوا على الخلفاء وعلى الأمراء، وعلى السّادة والعظماء لأن ذلك أشبه بالاحتفال والتّعظيم والإجلال وأبعد عن التّبذل والاسترسال»[1] كما لبس أهل الكوفة (البجاد)[2]. وكان أصحاب السّلطان عادة يلبسون المبطنة أو الدّراعة أو العباء ومنهم من يلبس (القزا كند)[3] ويعلق الخنجر. وكان الشّعراء يلبسون الوشي والمقطعات والأردية السّود[4] كما لبس زهاد الكوفة الملابس الصّوفية الرخيصة[5] وقد اختلف في لبس العمامة وشكلها فاشار الجاحظ إلى أن للخلفاء عمة وللفقهاء عمة وللبقالين عمة وللأعراب عمة وللنّصارى عمة وهكذا[6]. وكانت العمامة من الملابس المحترمة عند المسلمين ولها أهمية كبيرة، فقد وصفها عمر ابن الخطاب بقوله «العمائم تيجان العرب»[7].

وقال فيها الإمام على أن «جمال الرّجل في عمته والقنسوة»[8]

الطعام:

لقد كان طعام العرب أول الأمر قاصراً على الألبان وما يستخرج منها كالسمن والزّبد والجبن، ومن التّمر والحبوب واللحوم وخبز الشّعير والمريس[9] ياكلونها على أبسط ما يكون من أحوالها.

فلما فتحوا العراق وفارس ومصر وغيرها تعرفوا على حضارة الفرس والرّوم ووقعوا على ألوان من الأطعمة لم يعرفوها من قبل فقلد العرب الفرس في ترفهم في أيام بني أمية، وأول من قلد الأعاجم في أسباب التّرف من الخلفاء معاوية بن أبي سفيان فنعم بمأكله ومشربه[10] وافتدى به خلفاؤه وسائر النّاس ولا سيما بعد أن كثرت الأموال في أيديهم.

هذا وقد تأثر عرب الكوفة بالفرس في آداب الطّعام فكان الفرس لا يتحدثون أثناء تناولهم الطعام، هذا وحفلت موائدهم بأنواع الطّعام كما تعددت أصنافه.

وقد أشار ابن خلدون إلى تقليد العرب الفرس في طعامهم فقال «أراد الحجاج أن يولم وليمة احتفالاً بختان ولد له فاستحضر بعض الدهاقين ليسالهم عن ولائم الفرس»[11].

وكان من عادة أهل الكوفة ولا سيما الولاة منهم إطعام عامة النّاس حيث أقاموا لهم المآدب الخاصة التي حفلت بالوان الطّعام فكان زياد بن أبيه في العراق يطعم السّابلة والفقراء وذوي الحاجات «فكان يغذي ويعشي العامة كل يوم عدا الجمعة فإنه كان يعشي ولا يغذي وكان لا يرد عن طعامه أحد وكان يتمجح (يشرب) عنده اللبن من حضره»[12]. وكان لعبيد الله بن زياد طعام لخاصته وحرسه ولم يكن طعام للعامة[13]. وقد حفلت هذه الموائد بالوان الطّعام وأصنافه.

وكان الحجاج يطعم في كل يوم على ألف مائدة، وعلى كل واحدة منها ثريد وجنب من شواء وسمك طرية وعلى كل مائدة منها عشرة وكان له ساقيان يطوفان بين الموائد أحدهما يسقي الماء والعسل والآخر يسقي اللبن[14].

هذا وقد سار بعض سراة الكوفة على نهج ولاتهم في إطعام النّاس فظهرت جماعة يتبارون في عمل الولائم فكان منهم من أرسل الجفان ملأى بالطّعام في أحياء القبائل وعلى أفواه السكك والدّروب لإطعام النّاس[15] وكانت هذه الولائم تكثر في شهر رمضان[16].

كما أن الموائد كانت تنصب لأغراض سياسية بالإضافة إلى الغرض الدّيني والإنساني، وذكر الطّبري أن عبد الملك بن مروان دخل الكوفة لما قتل مصعباً فامر بطعام كثير فصنع وأمر به إلى الخور نق وأذن إذناً عاماً[17].

وتحدث بعض الفقهاء، والكتاب عن الطعام وأنواعه فذكر الجاحظ بأن المأكولات الفاخرة هي «الدّرمك والفالوذق والحسيس والثّريد»[18].

وهذا بطبيعة الحال طعام أهل الثّراء. وقد فضل النّبي الثّريد على غيره فقال «سيد الطّعام الثّريد». وكان أهل الكوفة يرون الخبز واللحم أفضل الطّعام[19].

كما روى عن قاضي الكوفة (شريح) أنه قال أن أوسط

---

(١) الجاحظ: البيان والتّبين ج٣ ص١٠٣.

(٢) وهو كساء مخطط Dozy،55.p

(٣) القراند: وهي كلمة فارسية مكونة من مقطعين الأوّل: القز، ومعناها الحرير. والثّانية: كند: مهناها محشواً فتكون ثوباً محشواً قزاً أو قطناً-الجاحظ: البيان والتّبين ج٣ ص١٠٤.

(٤) الجاحظ: البيان والتّبين ج٣ ص١٠٤.

(٥) الجاحظ: البيان والتّبين ج٣ ص٣٧٣.

(٦) الجاحظ: البيان والتّبين ج٣ ١٠٣.

(٧) الجاحظ: البيان والتّبين ج٣ ص٨٥

(٨) الجاحظ: البيان والتّبين ج٣ ص٨٥

(٩) المريس: وهو الخبز الرّقاق يمرس بالسمن والتّمر، كما يصنعه أهل مصر بالفسل بدل التّمر وهو الذي يسمونه (البسيسة) Dozy،860..p

(١٠) جرجي زيدان: التّمدن الإسلامي جـ١ ص٨٨

(١١) ابن خلدون: المقدمة ص١٢٢.

(١٢) البلاذري: أناب الأشراف، جـ٤ قسم ٢ ص٨٦

(١٣) البلاذري: أناب الأشراف، جـ٤ قسم ٢ ص٨٦

(١٤) المبرد: الكامل جـ١ ص٣٢٦.

(١٥) الجاحظ: البيان والتّبين جـ٣ ص٢٢١

(١٦) المبرد: الكامل جـ١ ص٣٢٦

(١٧) الطبري، جـ٧ ص١٩٠.

(١٨) الجاحظ: البخلاء ص٢٢٩-٣٣٠. الفالوذق: طعام أخذه العرب من الفرس.

(١٩) وكيع: أخبار القضاة جـ٢ ص٢٩٣.

الطّعام الخبز والزّيت والخل[1]، وهو طعام الطّبقة الفقيرة والمتوسطة. أما الطّبقة الغنية فكان طعامها الأرز والبيض بالسمن المسلىٰ بالسّكر والصّبرزد[2]. أما أهل الكوفة فيرون أن اللحم أرفع الطّعام، أما الخبز والزّيت أو السّمن والخل فهو أوسط الطّعام[3].

وذكر المبرد بأن أهل الكوفة أكلوا (الفرنية) وهي خبز يروىٰ لبناً وسكراً وسمناً ثمَّ يشوي[4].

هذا وروى أن الحجاج قال لجلسائه ليكتب كل رجل في رقعة أحب الطّعام إليه ويجعلها مصلاي فجاء في الرّقاع كلها الزّبد والتّمر[5]. وقد تفنىٰ الشّعراء في أكل الزّبد والتّمر.

فقال الشّاعر العربي:

ألا ليت خبزاً قد تسربل رائباً يكتب البيت الشعري بصورة صحيحه وخيلاً من البرتي فرسانها الزّبد[6]

هذا وقد تفنن العرب في أسماء الطّعام وألوانه حتى إنهم وضعوا له إسماً لكل مناسبة من المناسبات.

فكانوا يطلقون مثلاً اسم (الوليمة) على طعام العرس و(الأعذار) على طعام الختان (والخرس) على طعام الولادة (والنّقيعه) على طعام القادم من السّفر و(الوكيرة) على طعام الاحتفاء ببناء الدّور (والمادبة) على طعام الضّيوف[7].

الزّينة:

كان استعمال الخضاب أمراً مستحسناً عند العرب، فكان الرّجال يخضبون رؤوسهم ولحالهم بالحناء للحمرة، وبالزّعفران للصّفرة وبالسّواد[8]. كما أنهم خضبوا شعورهم بالوسمة أيضاً وصبغوها بالبياض بالكبريت[9]، وقد كان الرّسول يخضب شعره بالحناء والكتم[10]. وله حديث يحبذ للنّاس الخضاب بالحناء والكتم فيقول «أحسن ما غيرتم به الشّيب الحناء والكتم»[11].

وقد نهى الرّسول عن الخضاب بالسّواد فقال «غيروا هذا الشّيب وجنبوه السّواد»[12]. وعلى الرّغم من ذلك فإن العرب خضبوا بالسّواد شعورهم.

وقد أشار وكيع إلى أن محارب بن دثار، قاضي الكوفة كان يقضي في المسجد وهو مخضب بالسّواد[13]، وكان شريح القاضي يخضب لحيته[14] بالحناء. وقد خضب ابن سيرين لحيته بالصّفرة[15].

لم يقتصر الخضاب على الرّجال فقط وإنما تعداهم إلى النّساء ولا يزال ذلك شائعاً في العراق إلى اليوم وأكثرهن يخضبن بالحناء والسّواد، كما خضب أهل الكوفة أطرافهم بالحناء[16].

ولم يقتصر الرّجال والنّساء في زينتهم على الخضاب فقط بل أخذوا يمشطون شعورهم ويفرقونها[17] بعد دهنها بالدّهون[18] كما جعلوا لهم غدائر طويلة، وكان الحجاج مشهوراً بترحيل شعره وتخضيب أطرافه[19].

وقد قيل إن الرّسول كان له مشط عاج يمشط شعره ومرآة ومسواك لتنظيف أسنانه[20]، كما أنه كان يستعمل الدّهن لشعر رأسه[21]. وقد جاء في الأغاني «أن سكينة بنت الحسين كانت أحسن النّاس شعراً وكانت تصفف جمتها تصفيفاً لم ير أحسن منه»[22]. وهذا وقد استعمل العرب في الكوفة الكحل لتّجميل عيونهم[23] واستعمل العرب الطّيب واعتبروه من علامات النّبل[24]. فكان الرّجل أو المرأة يضع في ملابسه من أنواع العطور لتذكو رائحته ومن هذه العطور التي كان العرب يستعملونها المسك والعنبر[25].

وقد ذكر الطّبري أن المختار الثّقفي قبل أن يخرج لمقاتلة

---

(١) وكيع: أخبار القضاة جـ٢ ص٢٩٣.
(٢) ابن قتيبة: عيون الأخبار جـ٣ ص٢٠٠ الصبرزد: السّكر الأبيض الصّلب.
(٣) ابن حنبل: المسند جـ٣ ص٢٦٦.
(٤) المبرد: الكامل جـ١ ص٢٦٥.
(٥) ابن قتيبة:عيون الأخبار جـ٣ ص١٩٧.
(٦) الجاحظ: البخلاء، ص١٧٩.
(٧) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٦ ص٢٩٢، الصّولي: أدب الكتاب ص٢٢٦
(٨) ابن سعد: الطّبقات ج١ قسم ٢ ص١٤١
(٩) ابن سعد: الطّبقات ج١ قسم ٢ ص١٤١، الشّوكاني: نيل الأوطار ج١ ص١٠٤
(١٠) ابن سعد: الطّبقات ج١ قسم ٢ ص١٤١
(١١) ابن سعد: الطّبقات ج١ قسم ٢ ص١٤٠، أبو داود: السّنن ج٤ ص٨٥
(١٢) ابن سعد: الطّبقات ج١ قسم ٢ ص١٤٠، أبو داود: السّنن ج٤ ص٨٥ الشّوكاني: نيل الأوطار ج١ ص١٠٣
(١٣) وكيع:أخبار القضاة ج٣ ص٣١
(١٤) وكيع: أخبار القضاة ج٢ ص٣٠٤
(١٥) ابن سعد: الطّبقات الكبير جـ٧ قسم ٢ ص١٤٩
(١٦) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ٥ ص٤٨
(١٧) الشّوكاني: نيل الأوطار جـ١ ص١٠٨
(١٨) الشّوكاني: نيل الأوطار جـ١ ص
(١٩) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ٥ ص٤٨
(٢٠) ابن سعد: الطّبقات الكبير جـ١ قسم ٢ ص١٧٠
(٢١) ابن سعد: الطّبقات الكبير جـ١ قسم ٢ ص١٣٧
(٢٢) الأصفهاني: الأغاني جـ١٤ ص١٥٩
وكان هذا التّصفيف للشّعر يسمى الجمة السّكينية، وكان عمر بن عبد العزيز إذا وجد رجلاً يصفف السّكينية جله وحلق رأسه. الأصفهاني: الأغاني جـ١٤ ص١٥٩
(٢٣) الشّوكاني: نيل الأوطار جـ١ ص١١٠-١١١
(٢٤) المبرد: الكامل جـ١ ص٣٦٩
(٢٥) ابن سعد: الطّبقات جـ٨ ص٣٥٧

عبد الله ابن الزّبير في الكوفة اغتسل وتحنط ووضع الطّيب على رأسه ولحيته[١].

وكان تسويك الأسنان وتسنينها وقص الشّعر أمراً معروفاً[٢]. هذا وكانت النّساء تتحلى بالذّهب والفضة واللؤلؤ وصنعت الحلي منه بأشكال مختلفة[٣]. فكانت حفصة بنت أنس بن مالك تقول «كان أبي يحلينا بالذّهب ويكسونا بالحرير»[٤]، كما لبس الرّجال خواتم الفضة في أيديهم[٥] تجملاً وقد صنع عرب الكوفة من الذّهب حلياً كثيرة لنسائهم كالأسورة والخلاخيل والمعاضد والعقود والقلائد[٦]. وقد استعمل الذّهب أيضاً لتّجميل الأسنان[٧] وشدها.

الوفاة والجنائز:

كانت لأهل الكوفة تقاليدهم الخاصة في الوفاة والجنائز. فكان الميت يغسل ويوضع في جسمه الحنوط[٨] ثمَّ يكفن بالثّياب وقد روى أن الرّسول كفن بثلاثة ثياب بيض سحولية[٩] ليس فيها قميص أو عمامة[١٠] بعد أن وضع فيه الحنوط وقد ذكر أن أبا بكر الصّديق قد كفن بثلاثة أثواب بيض سحولية يمانية ليس فيها قميص ولا عمامة[١١]. وكفن عمر بن الخطاب في ثوبين سحوليين وقيل صحاريين[١٢] وقميص كان يلبسه[١٣]. وروى أن علي ابن أبي طالب كفن بثلاثة أثواب ليس فيها قميص[١٤]. وكفن عبد الله ابن مسعود بحلة بمائتي درهم[١٥] وكفن محمد بن سيرين بحلة حبر[١٦]. ثمَّ يوضع على جسم الميت عادة الحنوط وقد استعمل أهل الكوفة الحنوط عندما توفي الأشعث بن قيس[١٧].

(١) الطّبري، جـ٧ ص١٥٥

(٢) البيروني: الجماهير في معرفة الجواهر ص٢٠

(٣) ابن سعد: الطبقات جـ٨ ص٣٥٢

(٤) ابن سعد: الطّبقات جـ٨ ص٣٥٢

(٥) ابن سعد: الطّبقات جـ٧ قسم ١ ص١١٦

(٦) البيروني: الجماهير في معرفة الجواهر ص٢٢

(٧) الجاحظ: البيان والتّبين جـ١ ص٧٦

(٨) ابن سعد: الطّبقات الكبير جـ٦ ص١٣

(٩) السّحولية: أنظر موضوع الملابس

(١٠) أبو داوود: السّنن جـ٣ ص١٩٨

(١١) ابن سعد: الطّبقات الكبير جـ٣ قسم ١ ص١٤٣

(١٢) الصّحاري: قماش من قطن رخيص

(١٣) ابن سعد: الطّبقات الكبير جـ٣ قسم ١ ص٢٩٦

(١٤) ابن قتيبة: الإمامة والسّياسة جـ١ ص١٤٨، الأصفهاني: مقاتل الطّالبيين ص٢٨

(١٥) ابن سعد: الطّبقات الكبير جـ٣ قسم ١ ص١١٢

(١٦) ابن سعد: الطّبقات الكبير جـ٧ قسم ١ ص١٤٩

(١٧) ابن سعد: الطّبقات الكبير جـ٦ ص١٣

وعندما تشيع الجنازة كان يصاحبها حملة المشاعل وبعض الرّجاز والنّائحات ناشرات شعورهن[١٨] وقد تعالت أصواتهن بالصّراخ والعويل[١٩] وكان المشيعون عادة يهرولون في الجنازة[٢٠] ولا سيما في أيام الصّيف الشّديد الحر وبعدها اتخذ السّير البطئ خلف الجنازة عادة.

وقد ذكر أن شريحاً قاضي الكوفة كان يمشي أمام الجنازة[٢١] وكان بعض المشيعين لا يستطيعون السّير خلف الجنازة أو قد يصعب عليهم ولا سيما في أوقات البرد الشّديد والحر الشّديد، فكانوا يركبون الدّواب[٢٢].

ولما مات الحسن البصري سنة (١١٠)هـ تبع أهل البصرة كلهم جنازته فلم يبق بالمسجد من يصلي العصر ولم تترك صلاة منذ كان الإسلام إلا يومها[٢٣].

وقد أمر عمر بن عبد العزيز بمنع النّائحات من مرافقة الجنائز وقد كتب إلى ولاته بذلك «إن بلغني أن نساء أهل السّفه يخرجن عند موت الميت منهن ناشرات شعورهن ينحن كفعل الجاهلية وإن الله لم يرخص للنّساء هذه النّياحة فتقدم في هذه الناحية تقدماً شديداً»[٢٤].

لقد كان من مراسيم الدّفن أن يُصلىٰ عن الجنازة قبل دفنها، وأشار وكيع إلى أن علي بن أبي طالب كان في الرّحبة (رحبة علي) فاتى بجنازة فصلى عليها[٢٥].

وكانت القبور في الكوفة والبصرة عبارة عن حفر يوضع فيها جسد الميت ثمَّ يوارى في التّراب ولا يبنى على القبر شيء[٢٦] سواء كان الميت غنياً أو فقيراً لأن ذلك غير مستحب في الإسلام. حيث قيل خير القبور الدّوارس وقد أشار وكيع إلى أن الإمام علي بن أبي طالب أرسل صاحب شرطته في الكوفة وقال له «إني أبعثك لما بعثني له رسول الله ألا تدع قبراً مشرفاً إلا سويته»[٢٧]. وقد دفن الأمير بشر ابن مروان أمير البصرة بقرب قبر حبشي ثمَّ اختلط القبران على النّاس فيما بعد فلم يستطيعوا التّمييز بينهما[٢٨].

(١٨) البلاذري: أنساب الأشراف جـ٧ ص٤٦٦ (مخطوط)، صالح العلي: التّنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص١٨١.

(١٩) الجاحظ: البيان والتّبين جـ٢ ص٧٦، صالح العلي: التّنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص١٨١.

(٢٠) أبو داوود: السّنن جـ٣ ص٢٠٠.

(٢١) وكيع: أخبار القضاة، جـ٢ ص٢٦٧.

(٢٢) وكيع: أخبار القضاة جـ٢ ص٢٧٧.

(٢٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١ ص١٨١.

(٢٤) البلاذري: أنساب الأشراف جـ٧ ص٤٦٦ (مخطوط).

(٢٥) وكيع: أخبار القضاة جـ٣ ص١٦.

(٢٦) أبو داوود: السّنن جـ٣ ص٢١٦.

(٢٧) وكيع: أخبار القضاة جـ٣ ص١١، أبو داوود: السّنن، جـ٣ ص٢١٥.

(٢٨) الجاحظ: البيان والتّبين جـ٣ ص١٣٢.

وفي الكوفة مقابر عدة لكل قبيلة خاصة بها وتقع عادة ضمن خططها[1].

ولكن عادة دفن الموتى ضمن خطط القبائل أخذت في التّغير فيما بعد فإن قسماً منهم أخذوا يدفنون موتاهم في مناطق أخرى خارج خططهم.

قال ابن مسعود «كان النّاس يدفنون موتاهم بالكوفة في جبابينهم فلما ثقل (خباب) قال لي أي بني إذا أنامت فادفنني بهذا الظّهر[2] فإنك لو قد دفنني بالظّهر قيل دُفن بالظّهر رجل من أصحاب رسول الله، فدفن النّاس موتاهم فلما مات (خباب) رحمه الله دفن بالظّهر فكان أول مدفون بظهر الكوفة خباب[3].

هذا ولم يبق العرب على عادتهم القديمة وتحريهم البناء على قبور الموتى وإنما أخذوا يبنون قبور موتاهم بالآجر والصّخر ويضعون عليها الشّواهد ويكتبون فيها عبارات التّوبة والاستغفار كما يضعون عليها اسم المتوفى واسم أبيه وتاريخ وفاته.

وليس أدل على ذلك من هذا النّص «بسملة: هذا القبر لعبد الرحمن بن خير الحجري اللهم اغفر له وادخله في رحمة منك واتنا معه.

استغفر له إذا قرأ هذا الكتب وقل آمين وكتب هذا الكتب في جمادى الآخر من سنة إحدى وثلاثين»[4].

(ب) الموالي:

لقد قدم هؤلاء الموالى إلى الكوفة أسرى حرب، ثم اعتنقوا الإسلام، فاعتقهم أسيادهم العرب فاصبحوا موالي لهم[5].

وينتقل العبيد بعد عتقهم من الرّق إلى مكانة أخرى تكون بين الرّق والحرية ويصبح هؤلاء الموالى إلى أعضاء في عشيرة سيدهم ويتمتعون بحرية كبيرة في استغلال مواهبهم وقابليتهم الفردية. والمولى حر في اختيار المهنة والعمل الذي يتلاءم مع قابلياته. أما الزّواج بواحدة أو أكثر أو اقتناء العبيد وغير ذلك من الامتيازات فهي خاصة بالأحرار المسلمين. وقد دخل الموالى التّنظيم القبلي وأصبح موالى كل قبيلة ينتسبون إليها يحاربون في صفوفها[6]، كما يحاربون مع أسيادهم الذّين منوا عليهم بالعتق[7] إذا وقعت الحرب.

(١) اليعقوبي: البلدان ص٣١١.

(٢) كان الظّهر يدعى خد العذراء ينبت الخزامى والأقحوان والشّيح والقيصوم والشّقاق.

(٣) ابن سعد: الطّبقات الكبير جـ٣ قسم ١ ص١١٨.

(٤) Repertoire :1.vol.6..p

(٥) البلاذري: أنساب الأشراف ص٧ ص٤١٧ (مخطوط)، Nicholson :Arabs the of Histoty Literary ،218..p

(٦) ابن خلدون: المقدمة ص٩٦.

(٧) ولهاوزن: الدّولة العربية وسقوطها ص١٧٤.

وأشار المبرد إلى أن فيروز حصين حارب الحجاج وكان معه مواليه[8] وكان مع عباد بن زياد (الفين) من مواليه يقاتلون معه[9]. فكان الموالى بذلك مصدر قوة لهذه العشائر، لأنهم كانوا في الأصل جنوداً مدربين على القتال.وبالإضافة إلى موالى العتق هؤلاء ظهر نوع آخر من الموالى من الأعاجم الذّين جاءوا إلى الكوفة واستوطنوها بمحض اختيارهم وتحالفوا مع بعض القبائل واضعين أنفسهم تحت حمايتهم معلنين طاعتهم وولاءهم لها، وهؤلاء الموالي يشبهون موالى العتاقة إلى حد بعيد ولكنه كان بإمكانهم ترك ولاء العشيرة إذا لم تدفع عنهم دية عن جريمة ارتكبوها فإذا ما دفعت العشيرة عنهم الدّية أصبح ولاؤهم ثابتاً لا يستطيعون تركه[10]. وقد ضرب لنا البلاذري[11] مثلاً لذلك فقال «إن رجلاً من الموالى قتل رجلاً خطأ فقال عمر بن عبد العزيز إن مولى القوم من أنفسهم وهم أحق بميراثه فليعطوا عنه» فجعل الدّين عليهم.

وقد استوطن الكوفة بجانب الموالى أفراد من المحاربين الفرس بعد أن استسلموا للعرب وتعاهدوا على القتال في صفوفهم وقد منحت هذه القوات نفس حقوق العرب، فنزلوا الكوفة وفرض لهم العطاء. وقد حالف هؤلاء بعض القبائل العربية مثل قبيلة تميم وهم الحمراء (حمراء ديلم).

وقد سير زياد بين أبيه فريقاً منهم إلى بلاد الشّام بأمر معاوية كما سير قسماً آخر منهم إلى البصرة فدخلوا في الأساورة التي سكنوها[12].

وقد سمح (لحمراء ديلم) أن يحتفظوا بتنظيماتهم ويتمتعوا بثقافتهم وبذلك كونوا في الكوفة مجتمعاً ذا طابع متميز عن المجتمع العربي.

وقد تجمعت في الكوفة أعداد ضخمة منهم، فقد شاع استخدامهم بصورة فريدة فكان قلما يخلو بيت منهم. وقد أشار المبرد إلى ذلك بقوله: «يخرج الرّجل من أهل الكوفة في العشرة أو العشرين من مواليه»[13].

لقد كون هؤلاء الموالي نسبة كبيرة من سكان الكوفة وقد أشار ابن قتيبة إلى «أنّ سكان الكوفة في خلافة علي بن أبي طالب سبعة وخمسين ألفاً من العرب ومماليكهم ثمانية آلاف»[14]، حتّى قيل أنّ الموالي بلغوا نصف السّكان.

(٨) المبرد: الكامل ج٣ ص١١٠٣.

(٩) البلاذري: أنساب ج٥ ص١٦٥.

(١٠) أبو حنيفة: جامع المساند ج٢ ص١٧٤.

(١١) البلاذري: أنساب الأشراف ج٧ ص٤٢٨ (مخطوط).

(١٢) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٧٩.

(١٣) المبرد: الكامل ج١ ص٣٣٣.

(١٤) ابن قتيبة: الإمامة والسّياسة ج١ ص١٤٨، Nichoison: Literary History of the Arabs, p. 218

وقد تمتع هؤلاء الموالي جميعاً بكثير من الحقوق وقد تسامحت الدّولة معهم، فأباحت لهم الهجرة، في الوقت الّذي فرضت على غيرهم الجزية، كما أباحت لهم الدّولة التّمتع بمختلف أنواع الملكيات وبناء البيوت والأماكن الخاصة، وقد بنى الموالي مسجداً في الكوفة يقيمون فيه الشّعائر الدّينية سمي بمسجد الموالي[1]، كما وجد في تخطيط القبائل سكة تدعى سكة الموالي[2].

ولا توجد تفاصيل عن هذه السّكة أو عن الأشخاص الّذين سكنوها، أو موقعها بالنّسبة لتخطيط القبائل، وأباحت الدّولة أيضاً لهم القيام بالأعمال التّجارية والصّناعية وغيرها من الحرف الّتي احتكروها.

وقد ساوى الخلفاء الرّاشدون بين الموالي والعرب في العطاء، فقد كان أبو بكر يقسم العطاء بين النّاس بالتّساوي دون تفضيل أو تمييز عربي على مولى[3].

ولما ولى عمر بن الخطاب الخلافة كتب إلى أمراء الأمصار يقول: «ومن أعتقتم من الحمراء فاسلموا فالحقوهم بمواليهم لهم ما لهم وعليهم ما عليهم وإنّ أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم فاجعلوهم أسوة في العطاء»[4].

وروى أنّ قوماً قدموا على عامل لعمر بن الخطاب فأعطى العرب وترك الموالي فكتب عمر بن الخطاب: «أمّا بعد فبحسب المرء من الشّر أن يحقر أخاه المسلم»[5].

ولما جاء عثمان بن عفان أعطى الموالي والعبيد نصيبهم من العطاء[6]، وفي خلافة علي بن أبي طالب ساوى بين الموالي والعرب في العطاء أيضاً ورفض أن يحمل له الدّهاقين الهدايا[7].

وروي أنّ علياً بعد موقعة الجمل أعطى النّاس بالسّوية لم يفضل أحداً على أحد وأعطى الموالي كما أعطى الصّليبة فلما سئل في ذلك قال: «قرأت ما بين الدّفتين (يقصد القرآن) فلم أجد لولد إسماعيل على ولد إسحق فضل هذا، وأخذ عود من الأرض فوضعه بين أصبعه»[8].

كما أنّ عمر بن عبد العزيز جعل العرب والموالي في الرّزق والكسوة والمعونة والعطاء سواء[9].

ولكن هؤلاء الموالي رغم ذلك لم يحصلوا على المساواة الكاملة، فقد كان العرب في هذا العصر لا يكنونهم بالكنى ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب ولا يمشون معهم في الصّف ولا يتقدمون في المواكب[10]، هذا وإذا حضروا طعاماً قاموا على رؤوسهم وإن أطعم هؤلاء الموالي أجلسوهم في طرف الخوان لئلا يخفى على النّاظر أنّه ليس من العرب ولا يدع العرب مولى يصلي على الموتى إذا حضر أحد من العرب[11].

ولقد أعطانا المبرد صورة أخرى لاحتقار العرب الموالي فذكر: «أنّ نافعاً ابن جبير كان إذا مرّ عليه بالجنازة ساله عنها فإن قيل قرشي قال واقوماه، وإن قيل عربي قال واأمتاه وإن قيل مولى أو أعجمي قال اللهم عبادك تأخذ منهم من شئت وتدع من شئت»[12].

كما أطلق العرب على الموالي أسماء مستهجنة مثل «النّبط والحمراء[13] والموالي» وغيرها، وقد نادى الفقهاء المسلمين بان يعاقب كل من يدعو العربي بقوله النّبطي أو يا بن الحجام أو يا بن الخياط[14].

وقد ذكر ابن عبد ربه مثلاً آخر لمعاملة العرب الموالي قال: «قدم نافع بن جبير بن مطعم أحد وجوه العراق، رجلاً من الموالي يصلي به فعاب عليه العرب ذلك، فقال إنّما أردت أن أتواضع لله بالصّلاة خلفه[15]، هذا وكان القاضي شريح (قاضي الكوفة) لا يجيز شهادة الموالي»[16].

أمّا زواج الموالي بالعربيات فقد اعتبروه جريمة نكراء يستحق مرتكبها أقسى العقوبات ويحق للأمير أو الوالي أن يفرق بينهما، وقد تزوج عبد الله بن أبي كثير مولى بني مخزوم بالعراق في ولاية مصعب بن الزّبير امرأة عربية ففرق مصعب بينهما[17]، وكان بعض الولاة ينزلون عقوبات قاسية بالمولى بعد أن يفرقوا بينه وبين زوجته العربية، وقد أشار الأصفهاني إلى ذلك بقوله: «أنّ رجلاً من الموالي خطب بنتاً من أعراب بني سليم وتزوجها فركب محمّد بن بشير الخارجي إلى المدينة ووالياها يومئذ إبراهيم بن هشام بن إسماعيل، فشكا إليه فأرسل الوالي إلى المولى ففرق بين المولى وزوجته وضربه

(١) الطّبري: ج٩ ص٢٤٩، ماسنيون: خطط الكوفة ص٣٢.

(٢) ماسنيون: خطط الكوفة ص٣١.

(٣) اليعقوبي: التّاريخ ج٢ ص١١٥.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٤٤، ابن سلام: الأموال ص٢٣٥.

(٥) ابن سلام: الأموال ص٢٢٦، البلاذري: فتوح البلدان ص٤٤٣.

(٦) الطّبري: ج٥ ص٦٢.

(٧) اليعقوبي التّاريخ ج٢ ص١٦٣.

(٨) اليعقوبي التّاريخ ج٢ ص١٦٠.

(٩) ابن سعد: الطّبقات ج٥ ص٢٧٧.

(١٠) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٣ ص٤١٣.

(١١) الجاحظ: البيان والتّبيين ج٢ ص٢٥٤، ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٣ ص٤١٣.

(١٢) المبرد: الكامل ج١ ص٧١١- ٧١٣، ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٣ ص٤١٣.

(١٣) الطّبري: ج٧ ص٢٠٨.

(١٤) ابن مالك: المدونة ج٤ ص٢٩٣.

(١٥) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٣ ص٤١٢- ٤١٣.

(١٦) المبرد: الكامل ج٢ ص١٩٥.

(١٧) الأصفهاني: الأغاني ج٢١ ص١١٤.

مائتي سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه»[1]، وقال محمّد بن بشر في ذلك:

قضيت بسنة وحكمت عدلاً
ولم ترث الحكومة من بعيد
وفي المائتين للمولى نكال
وفي سلب الحواجب والخدود
فأي الحق أنصف للموالي
من أصهار العبيد إلى العبيد

أمّا إذا أراد العربي الزّواج من بنات الموالي خطبها من مولاها وسيدها أو أخيها، وإن زوجها أبوها أو أخوها بدون رضا سيدهم اعتبر العقد باطلاً[2].

ولم يكن الخليفة عمر بن العزيز يرتاح إلى زواج الموالي بالعربيات والعرب بالموالي، فكتب إلى عماله بعد أن تفشت الزّيجات قائلاً: «لا يتزوج من الموالي من العرب إلا الأشر البطر ولا من الموالي من العرب إلا الطّمع الطّيع»[3].

كما حرم العرب أعداداً كبيرة من العطاء في بعض الأحيان فقد أشار الطّبري إلى أنّ: «هناك عشرون ألفاً من الموالي يحاربون بلا عطاء ولا رزق»[4]، كما استخدموهم في الحروب مشاة ولا يركبونهم الخيل، وكان المختار أوّل من سمح لهم بركوب الخيل[5].

وقد حرم هؤلاء الموالي من تولى المناصب العامة الّتي تمكنهم من السّيطرة على المسلمين والتّحكم فيها كالقضاة أو قيادة الجيوش، وليس أدل على ذلك من قول المبرد عندما عين الحجاج سعيد ين جبير قاضياً على الكوفة ضج النّاس، وقالوا لا يصلح للقضاء إلا عربي[6]. ولما تولى ابن دراج (وهو من الموالي) القضاء في الكوفة ضج النّاس[7]. ونظم شاعر من أهل الكوفة أبياتاً منها:

يا أيها النّاس قد قامت قيامتكم
إذ صار قاضيكم نوح بن دراج
لو كان حياً له الحجاج ما سلمت
كفاءة ناجية من نقش حجاج[8]

(١) الأصفهاني: الأغاني ج١٤ ص١٤٤.
(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٣ ص٤١٣، الجاحظ: البيان والتّبيين ج٢ ص٢٥٤.
(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ج٧ ص٤١١ (مخطوط).
(٤) الطّبري: ج٧ ص١٣٤٠.
(٥) الطّبري: ج٧ ص١٤٧.
(٦) المبرد: الكامل جـ٢ ص٣٤٩، ابن خلكان: وفيات الأعيان: ٢ ص١١٥، ابن العماد- شذرات الذّهب جـ١ ص١٠٩.
(٧) المبرد: الكامل جـ٢ ص٤٤٠، ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ٣ ص٤١٧.
(٨) وكيع: أخبار القضاة جـ١ ص٢٦-٢٧.

وكان الموالي يعرفون نظرة العرب إليهم، وذكر أن عمر بن عبد العزيز أراد أن يولي مكحولاً القضاء فلم يوافق وقال، قال: «النّبي لا يقضي بين النّاس إلا ذو الشّرف في قومه وأنا مولى»[9]. وقد ذكر وكيع أن عمر بن الخطاب قال في القضاء لا يستقضين إلا ذا مال، وذا حسب، فإن ذا المال لا يرغب في أموال النّاس. وإن ذا الحسب لا يخشى العواقب بين النّاس.

هذا وقد حرم الموالي أيضاً فرصة قيادة الجيش وأوّل من ولى قيادة الجيش منهم زرياب مولى بجيله في زمن المختار. كما تولى كيسان أبو عمرة[10] قيادة حرس المختار في الكوفة أيضاً، كما تولى كيسان قيادة الموالي في جيش المختار في حربه مع ابن الزّبير[11].

ويبدو أن الظّروف السّياسية الحرجة التي عاشها المختار حتمت عليه أن يسلك هذا السّبيل، فأراد أن يجمع أكثر عدد ممكن من الموالي إلى جانبه لمحاربة خصومة السّياسيين حيث كانت أعداد الموالي هائلة في الكوفة وكانت لهم قوة ضاربة كبيرة أراد أن يرمي بها في وجه أعدائه.

لقد طالب سكان الكوفة الخلفاء بأن لا يعطوا الموالي عطاءاً مساوياً لهم إذ اعتبروا ذلك انتقاصاً لكرامتهم. وقد غضب الكوفيون عندما وزع علي بن أبي طالب العطاء بالتّساوي على العرب والموالي وقالوا له «يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم، فقال لهم اتامروني أن أطلب النّصر بالجور»[12] كما أن عرب الكوفة ثاروا في وجه الوليد بن عقبه في خلافة عثمان لأنه أعطى الموالي والعبيد نصيبهم من العطاء[13] وقد سخر العرب أعداداً ضخمة في الحروب دون عطاء أو رزق، وقد أشار الطّبري إلى هناك عشرين ألفاً من الموالي يحاربون بلا عطاء ولا رزق في عهد عمر بن عبد العزيز. وعندما تنبه إلى ذلك فرض لهم عطاء ورزقاً[14].

ولما وجد الموالي أن العرب قد حرموهم من حق العمل وتولي الكثير من وظائف الدّولة كما رأينا، اتجهوا إلى الأعمال البسيطة في المجتمع فكانوا يكسحون الطّرقات ويخرزون الأخفاف ويحوكون الثّياب[15]. كما زاولوا مهنة الخياطة والحجامة[16] وغيرها. ولكنهم ما لبثوا أن احتكروا الحرف والصّناعة والتّجارة في الكوفة أيضاً.

(٩) الدّينوري: الأخبار الطّوال ص٢٠٨
(١٠) الطّبري، جـ٧ ص١٠٩.
(١١) الطّبري: جـ٧ ص١٤٨.
(١٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة جـ٨ ص٣٠٥.
(١٣) الطّبري، جـ٥ ص٦٢.
(١٤) الطّبري، جـ٨ ص١٣٤ الحسينية.
(١٥) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ٣ ص٤١٤ز
(١٦) ابن مالك: المدونة جـ٤ ص٣٩٥.

لقد بدأ الصّراع بين العرب والموالى بعد أن استوطن هؤلاء الأعاجم الكوفة بشكل كبير مما أثار مخاوف العرب وكراهيتهم واستهجانهم، برغم الحاجة إلى جهودهم في الحياة الاقتصادية. ومما زاد من عنف هذه الكراهية أن العرب كانوا يعتبرون هؤلاء الأعاجم أحط منهم قدراً وأن اختلاطهم بالعرب سيؤدي حتماً إلى إفساد عنصرهم.

وقد أثار حفيظة زعماء الكوفة عطف بعض خلفاء المسلمين عليهم وخير مثل عن ذلك حديث الأشعث بن قيس وهو من الزّعماء المشهورين في الكوفة إلى علي بن أبي طالب إذ قال له «يا أمير المؤمنين غلبتنا هذه الحمراء على قربك»[١].

ولهذا جُرِد هؤلاء الموالى من بعض الحقوق وأصبح الصّراع الطّبقي أمرً حتمياً وكانت الغلبة للعرب في بداية الصّراع حيث حافظوا على سيطرتهم وكان الأعاجم يشعرون بالأهمية والثّقة بالنفس وأخذوا ينظرون إلى العرب بعين الحسد والكراهية بعد أن اعتنق عدد كبير منهم الإسلام وبعد أن شعروا باهميتهم وعلو شانهم وبحاجة الدّولة إليهم في الحرب، وفضلهم على تقدم الزّراعة والصّناعة والتّجارة فبدأوا يطالبون بإنصافهم وإعادة حقوقهم المسلوبة وقد ثار الموالى في عهد عبد الله بن الزّبير لانقطاع العطاء عنهم[٢] الأمر الذّي أجبر الحكومة إلى بعض طلباتهم فأدخلت بعضهم في ديوان العطاء وإن كان هذا العطاء غير مساوٍ لعطاء المسلمين لأن العرب كرهوا أن يقاسمهم الموالى العطاء والرّزق.

لم يقف اضطهاد العرب ولا سيما الولاة منهم عند هذا الحد وإنما تعداه إلى أكثر من ذلك، فقد عمد الحجاج بن يوسف إلى منع الموالى من الهجرة إلى المدن وأمر بإرجاعهم إلى قراهم وأن ينقش على يد كل واحد منهم اسم قريته[٣]. ولم يكتف الحجاج بذلك بل وضع الجزية على من أسلم منهم وبقيت هذه الجزية عليهم حتى خلافة عمر بن عبد العزيز حين وضعها عنهم، حيث كتب إلى عامله في الكوفة «إن الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه جابياً فمن دخل في المسلمين فله مالهم وعليه ما عليهم فانظر من كان من أهل الذّمة فاظهر الإسلام فاسقط الجزية عنه»[٤] فرفعت الجزية عمن أسلم من الموالى[٥].

كل هذه العوامل أدت إلى كرههم للعرب فظلوا يتحينون الفرص للإيقاع بهم وليشفوا حقدهم فاصبحوا عوناً لكل من خلع طاعة الحكم أو طلب الخلافة من العلويين والخوارج ممنين أنفسهم بالخلاص من هذا الظّلم والحصول على امتيازات قد يتغير معها وضعهم الاجتماعي. واتخذوا الدّين ستاراً لأغراضهم الخاصة، فقاتلوا أعداءَهم باسم الدّين والرّغبة في إعلاء كلمة الإسلام.

وقد خرج عدد كبير من الموالى وانضم إلى علي بن أبي طالب حوالي ثمانية آلاف في صفين[٦]. كما انضم قسم منهم إلى خوارج الكوفة وأخذوا يقاتلون بجانبهم[٧] حينما نادوا بجعل الخلافة حقاً لجميع المسلمين دون النّظر إلى اللون والجنس.

وكان المختار أشهر من استطاع أن يستميل الموالى إليه بأعداد ضخمة وأن يحارب بهم بني أمية ومَنّىٰ المختار بن أبي عبيد الثّقفي الموالى بالغنائم والعطاء الكثير وأركبهم على الدّواب حتى جاءوا إليه متطوعين. وكان عدد الموالى في جيش المختار أضعاف عدد الأحرار حتى قيل إن جيش المختار بلغ حوالي «عشرين ألفاً» كان معظمهم من الذّين اتخذوا اسم حمراء ديلم وهم من الفرس الذّين سكنوا الكوفة. وقد ضرب الدّينوري مثلاً واضحاً بين فيه كثرة هؤلاء الموالى في جيش المختار فقال: «وكانت غالبية جيشه من أبناء الفرس الذّين كانوا بالكوفة وكانوا يسمون بالحمراء حتى إنه لم يسمع في جيشه كلمة عربية واحدة»[٨].

لقد أبلى هؤلاء الموالى في القتال بلاءاً عظيماً فاق بلاء العرب الأحرار في كثير من الأحيان لنقمتهم الشّديدة على العرب وقد أشار الطّبري إلى قول عبد الرّحمن بن مخنف عندما جاءَهُ أشراف الكوفة وطلبوا منه الخروج معهم لقتال المختار إذ قال لهم: «إن معه مواليكم وعبيدكم وكلمة هؤلاء واحدة وعبيدكم ومواليكم أشد حنقاً عليكم من عدوكم، فهو مقاتلكم بشجاعة العرب وعداوة العجم»[٩].

ولما رأى وجهاء الكوفة انتصار المختار عليهم بمواليهم وعبيدهم انتقدوه وقالوا: «والله لقد تآمر علينا هذا الرّجل بغير رضى منا ولقد أدنى موالينا فحملهم على الدّواب وأعطاهم وأطعمهم فيئنا ولقد عصتنا عبيدنا»[١٠]. ولما لم ينفع هذا النّقد شيئاً بعثوا إليه يقولون «عمدت إلى موالينا وهم فيء أفاءه الله علينا، وهذه البلاد جميعاً فاعتقنا رقابهم نامل الأجر في ذلك والثّواب والشّكر فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءَنا في فيئنا وحملتهم على الدّواب»[١١].

(١) المبرد: الكامل جـ٢ ص٤٠٦.
(٢) البلاذري: أنساب الأشراف جـ٥ ص١٨٨.
(٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ٣ ص٤١٦.
(٤) البلاذري: أنساب الأشراف جـ٧ ص٤٠٥ (مخطوط).
(٥) أبو يوسف: الخراج ص١٥٧.
(٦) ابن قتيبة: الإمامة والسّياسة جـ١ ص١٤٨ز
(٧) اليعقوبي: التّاريخ جـ٢ ص١٩٧، ديمومينين: النّظم الإسلامية ص٤٨.
(٨) الدّينوري: الأخبار الطّوال ص٢٠٠.
(٩) الطّبري جـ٧ ص١١٧.
(١٠) الطّبري جـ٧ ص١١٦.
(١١) الطّبري جـ٧ ص١١٦.

وقد أرسل المختار الموالي إلى آفاق بعيدة للقتال فبعث ثلاثة آلاف جندي إلى الحجاز لمساعدة عبد الله بن الزّبير بقيادة شرحبيل بن ورس كان أكثرهم من الموالي ليس فيهم من العرب إلا سبعمائة رجل[١].

وكان المختار بتجنيد الموالي قد جرأهم على الحكومة فاستخفوا بها ونصروا أعداءها، وقيل إن مصعب بن الزّبير أسر جماعة من أصحاب المختار كان فيهم العرب والموالي فأراد إطلاق سراح العرب وقتل الموالي فأبى أصحابه فأمر بقتلهم جميعاً[٢].

وهنا لا بد أن نشير إلى أن من بين الأسباب التي أدّت إلى فشل ثورة المختار وإزاحته عن مسرح السّياسة تخلي أشراف الكوفة عنه وتأييده لمصعب بن الزّبير. لقد ذهب أشراف الكوفة إلى البصرة وطلبوا من ابن الزّبير هناك أن يساعدهم في القضاء على المختار لأنه استخدم عبيدهم، ومواليهم في القتال ضدهم وأعطاهم امتيازات كبيرة وأشار الطّبري إلى ذلك قائلاً: «لقد جاء مصعب أشراف النّاس من أهل الكوفة ودخلوا على مصعب وأخبروه بوثوب عبيدهم ومواليهم عليهم وسألوه النّصرة لهم والمسير معهم إلى المختار»[٣]. فقالوا له: «بأن نساءنا وحرمنا غلبنا عليهم عبداننا ومواليننا»[٤]

ومن أسباب فشل ثورة المختار أيضاً عدم إخلاص العرب له ولا سيما الذّين قاتلوا في جيشه مع الموالي إذ اعتبروا ذلك نقصاً منهم لمساواتهم مع الموالي في العطاء فبدأوا يكيدون له، ويبدو ذلك واضحاً في المعركة الفاصلة التي وقعت بين جيش المختار وجيش مصعب قرب الكوفة. وقد ولى المختار قيادة جيشه إلى «أحمر بن شميط» وقد جاءه وهب بن أنس الجشمي وهو قائد ميسرته فقال له «إن الموالي والعبيد آل خور عند المصدوقة وأن معهم رجالاً كثيرة على الخيل وأنت تمشي فمرهم فلينزلوا معك فإن لهم بك أسوة فإني أتخوف إن طردوا ساعة وطوعنوا وضوربوا أن يطيروا على متونها ويسلمون وإنك إن أرجلتهم لم يجدوا من الصّبر بد...فقال لهم يا معشر الموالي أنزلوا معي فقاتلوا فنزلوا معه..وكان هذا غشاً منه للموالي والعبيد لما كانوا يلقون منهم بالكوفة»[٥].

ولما فشلت ثورة المختار انضم الموالي إلى ثورة ابن الأشعث وقد أشار الطّبري إلى عدد الجيش الذّي كان مع ابن الأشعث في ثورته ضد الحجاج فقال: «اجتمع أهل الكوفة وأهل مصر وأهل الثّغور والمسالح بدير الجماجم والقراء من أهل المصرين مائة ألف مقاتل ومعهم مثلهم من مواليهم»[٦] حتى أن دهاقين الموالي كانوا يمدون ثورة ابن الأشعث ضد الحجاج بالمال كما فعل الدّهقان (فيروز بن حصين) وقيل عندما التقى جيش المختار بجيش الموالي تحت قيادة ابن الأشعث نادى الحجاج في المعسكر من أتى برأس (فيروز) فله عشرة آلاف درهم، ولكن فيروز دفع في رأس الحجاج مائة ألف درهم[٧].

وعندما فشلت ثورة ابن الأشعث لقي الموالي من الحجاج وبطانته صنوفاً من التّعذيب الوحشي والقتل الجماعي وأشار المبرد إلى ذلك بقوله «ونظر الحجاج فإذا جل من خرج من عبد الرّحمن من الفقهاء وغيرهم من الموالي فأحب أن يزيلهم عن موضع الفصاحة والأدب ويخلطهم بأهل القرى والأنباط فقال «الموالي علوج وإنما أتى بهم من القرى، فقراهم أولى بهم» فأمر بتسييرهم من الأمطار وإقرار العرب بها وأمر أن ينقش على يد كل إنسان منهم اسم قريته، وطالت ولايته فتوالد القوم هناك فخبثت لغات أولادهم وفسدت طباعهم، فلما قام سليمان بن عبد الملك أخرج من كان في سجن الحجاج من المظلومين وقد خرج في يوم واحد ثمانين ألفاً، ورد المنقوشين فرجعوا في صورة الأنباط[٨].

وعندما استطاع الحجاج القضاء على الثّورات الدّاخلية وإخمادها جند الموالي بالقوة والإرهاب، ورمى بهم أعداء الدّولة، فقد أرسل جيشاً لمساعدة المهلب بن أبي صفرة لمحاربة الخوارج فكان فيه ألفاً من الموالي حتى[٩] هرب عدد كبير منهم إلى الحجاز متخلصاً من ظلم الحجاج وقسوته[١٠].

وبعد أن أصبح هؤلاء خطراً على الدّولة لكثرة عددهم صار الخلفاء والولاة يحسبون لهم ألف حساب، وقد تنبه معاوية إلى خطرهم على الدّولة حيث بلغ عددهم في الكوفة في عهده عشرين ألفاً[١١] فقال «إني رأيت هذه الحمراء (يعني الموالي) قد كثرت، وكأني انظر إلى وثبة منهم على العرب والسّلطان فقد رأيت أن أقتل شطراً أو أدع شطراً لإقامة السّوق وعمارة الطّريق ثم عدل ذلك[١٢].

وقد أصبح بعض الخلفاء يسترضي بالعطاء ونحوه وكان أول من فرض لهم العطاء من بني أمية معاوية بن أبي سفيان فإنه جعل لكل واحد من الموالي (خمسة عشر) درهما وجعلها

(١) الطّبري جـ٧ ص١٣٤.
(٢) ابن الأثير: الكامل جـ٤ ص٢٢٥.
(٣) الطّبري جـ٧ ص١٤٦.
(٤) الطّبري جـ٧ ص١٤٧.
(٥) الطّبري، جـ٧ ص١٤٨.
(٦) الطّبري، جـ٨ ص١٥.
(٧) المبرد: الكامل جـ٣ ص١٠٥، السّكري: المحبر ص٣٤٥.
(٨) المبرد: الكامل جـ٢ ص٤٣٩-٤٤٠
(٩) الطّبري، جـ٧ ص٢٣٣.
(١٠) الطّبري، جـ٨ ص٩٠.
(١١) الدّينوري: الأخبار الطّوال ص٢٩٦.
(١٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ٣ ص٤١٣.

الخليفة عبد الملك (عشرون) درهماً وجعلها سليمان (خمسة وعشرون) درهماً ثم جعلها هشام (ثلاثون) درهماً[1].

ولكن هذا العطاء الذّي فرض كان قلما يُعطىٰ لهم لأن العمال والولاة كانوا يستخدمونهم غالباً بلا عطاء ولا رزق[2].

ومهما يكن من أمر فإن سياسة العطاء هذه لم تكن ثابتة، فقد كان العطاء ينقص أو يزيد وفقاً لرغبات وأهواء الخلفاء والأمراء والظروف السّياسية، وبصورة عامة فإن عطاء الموالى أقل بكثير من عطاء العرب.

لم يكتف الموالى بمناهضة العرب سياسياً وعسكرياً وإنما أخذوا ينشرون مآثر آبائهم ويفاخرون العرب ويظهرون فضل العجم على العرب.مما أدى هذا التّنافس إلى ظهور الشّعوبية في الكوفة.

ترك الموالى في مجتمع الكوفة أثراً واضحاً فالحروب الكثيرة التي خاض المسلمون غمارها عادت عليهم بشيء كثير من النّساء، وكان بعضهم يبيع هذا السّبي والبعض الآخر كان يتزوج السّبايا كما تزوجوا بالنّساء الفارسيات وغيرها من غير السّبي. قال الطّبري: «تزوج المهاجرون والأنصار في أهل السّواد يعني من أهل الكتاب»[3]. وذلك لحاجة المحاربين إلى المرأة في مثل هذه الظّروف الحربية القاسية.

وروى الطّبري أيضاً عن جابر أنه قال: شهدت القادسية مع سعد فتزوجنا نساء أهل الكتاب ونحن لا نجد مسلمات فلما قفلنا فمنا من طلق ومنا من أمسك[4].

ولكن هذا الزّواج بالأعجميات لم يكن يرضي الخليفة عمر بن الخطاب وكان يحاول جاهداً الحد منه خوفاً من أن يغلبن النّساء العربيات الأمر الذّي يترتب عليه نتائج اجتماعية خطيرة. قال الطّبري: «بعث عمر ابن الخطاب إلى حذيفة بن اليمان بعدما ولاه المدائن بلغني أنك تزوجت امرأة من أهل المدائن من أهل الكتاب فطلقها، فكتب إليه لا أفعل حتى تخبرني أحلال أم حرام، ما أردت بذلك، فكتب إليه لا بل حلال ولكن في نساء الأعاجم خلابة فإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم، فقال الآن، فطلقها»[5].

كانت النّساء الأعجميات ينتمين إلى أمم مختلفة متباينة في العادات والتّقاليد والأخلاق فكانت هذه الإماء والجواري من الوسائل المهمة لنقل حضارة الأمم المختلفة ووسائل التّرف الأخرى إلى بيوت العرب وتعليمهم طهي أنواع كثيرة من الطّعام فضلاً عن جلبهن الملابس الجميلة الزّاهية كما نقلن الشيء الكثير من عادات وتقاليد بلادهن فاستطعن أن يؤثرن في المجتمع الكوفي تاثيراً واضحاً.

ولم يقتصر تاثير النّساء الأعجميات على نواحي المجتمع فقط وإنما كان للزّواج بالسّبايا الأعجميات أثر بارز في مزج الدّماء العربية بالدّماء غير العربية، وقد رأينا كيف وزع العدد الكبير من أبناء البلاد المفتوحة، نساءَهم على المحاربين العرب كغنائم وسبايا فكان لكل محارب عدد من العبيد والإماء يستخدمهم في قضاء حوائجه ويستولد الإماء أن شاء ويتزوجهن حتى صار عدد كبير منهن أمهات لبعض الخلفاء أو الوزراء أو الأمراء، قال الأصفهاني «بعث جنيد بن عبد الرّحمن المري إلى خالد القسري عدداً كبير من سبي الهند البيض فوزعها على قريش ووجوه النّاس في الكوفة»[6] وقد كان هؤلاء الجواري والإمام سبباً في إيجاد الاضطرابات في البلاط والمناصب الإدارية العليا، فكانت كل سيدة تحابي من يتصل بها من الأقارب والأولياء وترفعهم ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

وقد شعر العرب أنفسهم بهذا الاختلاط وأثره السيئ على الأجيال القادمة وشكوا منه مر الشّكوى[7]. وقد تجلى ذلك واضحاً في شعر الشّاعر الرياشي حين[8]قال:

إن أولاد الـــــــــــــــسّراري
كثـــــــروا يـــــــارب فينـــــــا
رب أدخلنـــــــــــي بـــــــــلاداً
لا أرى فيهـــــــــا هجينـــــــــاً

لقد عومل أولاد الإماء معاملة خاصة تختلف كثيراً عن أولاد الأحرار حيث كان هؤلاء الهجناء لا يتساوون في الإرث مع إخوتهم أولاد الحرائر[9]كما أنهم أقل منهم في المنزلة الاجتماعية.

لقد أقبل الموالى بعد أن أسلوا على دراسة اللغة العربية فتعمقوا فيها وأخذوا يدرسون الفقه والحديث، وبرز منهم في الكوفة عدد كبير جداً في مختلف مجالات المعرفة فاشتهر منهم هبيرة بن حريم من ثقاة المحدثين وهو من أصحاب المختار. ويزيد ابن أبي زياد، وعمر بن قيس، وأبو إسحاق إبراهيم بن مسلم[10] (من أهل الهجر) وهؤلاء جميعهم من ثقاة المحدثين وغيرهم كثيرون[11].

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ٤ ص٤٠٠.

(٢) الطّبري، جـ٨ ص١٣٤.

(٣) الطّبري، جـ٣ ص٨٨

(٤) الطّبري، جـ٣ ص٨٨

(٥) الطّبري، جـ٣ ص٨٨

(٦) الطّبري، جـ٤ ص١٨٤.

(٧) الأصفهاني: الأغاني جـ٩ ص٧٥.

(٨) المبرد: الكامل جـ٢ ص٤٦٧.

(٩) المبرد: الكامل، جـ٢ ص٣٩٢.

(١٠) ابن الأثير: الكامل، جـ٣ ص٥٢٣ز

(١١) ابن سعد: الطّبقات الكبيرة جـ٦ ص٢٣٧، ٢٣٦، ٢٤٠.

كما اشتهر منهم في الشّعر والأدب أبو دلامة[1]. واشتهر منهم أيضاً في الفصاحة والبلاغة عدد كبير أشهرهم ابن سيار الأسواري الذّي وصفه الجاحظ بقوله«كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية وكان يجلس في مجلسه المشهور به فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها بالفارسية فلا يدرىٰ باي لسان هو أبين»[2].

وهذا وتولى بعضهم القضاء في الكوفة مثل «شريح» الذّي ظل على قضاء الكوفة (خمسة وسبعين) عاماً من عهد عمر بن الخطاب حتى عهد الحجاج بن يوسف الثّقفي وهو من أصل فارسي[3] وابن دراج[4] وسعيد ابن جبير[5] الذي شغل إلى جانب القضاء جباية الصّدقة والعشور في عهد ابن الأشعث[6].

كما تولى بعضهم كتابة الدّواوين فكان أبو جبيرة الأنصاري كاتباً لعمر ابن الخطاب ولعثمان بن عفان على ديوان الكوفة[7]. وكان عامر الشّعبي يكتب لعبد الله بن مطيع وعبد الله بن يزيد الخطمي عاملي عبد الله بن الزّبير على الكوفة[8]

وقد عين زياد بن أبيه كاتباً وعامل خراج من الفرس[9]، وكان يقول «ينبغي أن يكون كتاب الخراج من رؤساء الأعاجم». ومن كل ما تقدم أخذ هؤلاء الموالي يفاخرون بامجادهم وبمآثرهم وبدأوا ينشرونها بين النّاس مبينين فضل العجم على العرب[10].

أثر الموالى في الحياة السّياسية تأثيراً فكانوا يحرضون على الثّورة ضد الحكم ويؤيدون كل من يثور على الحكم القائم واشتركوا في ثورات عديدة فقد أيدوا المختار واشتركوا معه في ثورته كما أيدوا ثورة ابن الأشعث وساهموا فيها.

لقد اشتغل عدد كبير من موالى الكوفة بالمهن الحرة فزاول التّجارة عدد كبير منهم فكلن حمزة الزّيات (وهو مولى لآل عكرمة) يجلب الزّيت من الكوفة إلى حلوان ويجلب من حلوان الجبن والجوز إلى الكوفة[11]. وكان منصور بن أبي الأسود يشتغل في التجارة أيضاً[12] وكان محمد بن سوقة مولى بجيلة تاجراً لبيع (الخز) في الكوفة[13] ومحمد بن سيرين كان يبيع (البز) في الكوفة قبل ذهابه إلى البصرة كما اشتغل أبو دكين (مولى مراد) ببيع العطور والرّقيق[14] والدّواب.

وزاول عدد من الموالي أيضاً مهنة الصّناعة باعداد كبيرة فاشتغل في النّجارة الأشعث بن سوار (مولى ثقيف)[15].

وقد زاول عدد من موالي الكوافة مهنة الصّيرفة وبرعوا فيها مثل سدير ابن حكيم الذّي كان أبوه (حكيم) صيرفياً من قبل وهم من موالي بني ضبة[16] وبسام بن عبد الله وهو من موالي بني أسد[17].

وما أن جاء العصر الأموي حتى أصبح عدد من الموالي يملكون الضّياع والأراضي الزراعية الواسعة، وكان فيروز بن حصين أشهر من ملك الثّروات الطّائلة والأراضي الواسعة والعبيد[18] كما ملك أبو دكين (مولىٰ مراد) ثروات ضخمة من المال حتى إنه كان يساعد عشيرته ويمدها بالمال[19].

هذا وقد أثر الموالي في اللغة العربية حيث أدخلوا ألفاظاً ومفردات فارسية أكثرها تتصل بالأسماء والأطعمة والأشربة وأدوات التّرف ومجالس اللهو وأدواته وغيرها، وأصبحت شائعة بين أهل الكوفة فأطلق على مفترق الطّرق (جهار سوج) وأضيف هذا اللفظ إلى أحد الأسماء العربية فيقولون (جهار سوج خنيس) (وجهار سوج كندة) (وجهار سوج همدان وجهار همدان وجهار سوج بجيلة)[20] وسمي (عنترة الحجام) (الحجام عنترة)[21] وقد أشار البلاذري إلى ذلك فقال: «كان بالكوفة موضع يعرف بعنترة الحجام وكان أسود فلما دخل أهل خرسان الكوفة كانوا يقولون حجام عنترة، وحجام فرج فبقى النّاس على ذلك[22].

ويضاف إلى هذا كله أن العرب اقتبسوا كلمات فارسية كثيرة أدخلوها على اللغة العربية فقد كان أهل الكوفة مثلاً

(١) الأصفهاني: الأغاني ج٩ ص١٢٠ز
(٢) الجاحظ: البيان والتّبين ج١ ص٣٤٦.
(٣) الدّميري: الحيوان جـ١ ص٢٦.
(٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ٣ ص٤١٧، المبرد الكامل جـ٢ ص٤٤٠.
(٥) ابن سعد: الطّبقات جـ٦ ص١٧٨، المبرد: الكامل جـ٢ ص٤٣٩، ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١ ص٢٠٥، السّكري: المحبر٣٧٨.
(٦) ابن سعد: الطبقات الكبيرة جـ٦ ص١٨٣.
(٧) الطّبري: جـ٧ ص١٧٨، السّكري: المحبر ص٣٧٨.
(٨) الجاحظ: البيان والتّبين جـ١ ص٢٤٥، السّكري: المحبر ص٣٧٨.
(٩) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص٢٦.
(١٠) اليعقوبي: التّاريخ جـ٢ ص٢٠٩
(١١) ابن سعد: الطّبقات جـ٦ ص٣٦٨، ابن النّديم: الفهرست ص٤٤.
(١٢) ابن سعد: الطّبقات جـ٦ ص٢٦٦.
(١٣) ابن سعد: الطّبقات جـ٦ ص٢٣٧.
(١٤) السكري: المحبر، ص٣٤٢.
(١٥) ابن سعد: الطبقات جـ٦ ص٢٣٧.
(١٦) ماسنيون: خطط الكوفة ص٢٤.
(١٧) ماسنيون: خطط الكوفة ص٢٥.
(١٨) المبرد: الكامل، جـ٣ ص١١٠٥.
(١٩) السّكري: المحبر ص٣٤٢.
(٢٠) جهار سوج، كلمة فارسية مكونة من كلمتين (جهارت-أربع) و(سوج-اتجاه) معناها الجهات الأربع، الجاحظ: البيان والتّبين جـ١ ص٣٧، ابن سعد: الطّبقات جـ٦ ص٨، ٢٣، ماسنيون: خطط الكوفة ص١٨.
(٢١) ماسنيون: خطط الكوفة ص١٨.
(٢٢) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٨١.

يسمون (المسحاة)[1] بال (وهو اسم فارسي) كما سمى أهل الكوفة أيضاً (الحوك)[2] باذروج ويسمون السّوق (وازاز) والقثاء (خيار) والمجذوم (ويذي)[3] كما استعملوا كلمة الكوز والجرة والإبريق والخوان وغيرها.

كما أدّى اختلاط الموالي بسكان الكوفة إلى انتشار اللكنة الفارسية بين العرب وكثر اللحن: فكان عبيد الله بن زياد وإلى العراق ممن اشتهروا باللكنة الفارسية[4]. وقد مر الشّعبي بقوم من الموالي يتذاكرون النّحو فقال: «لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده»[5].

كما ادخلوا في مجتمع الكوفة بعض العادات والتّقاليد ولا سيما عيدي النّوروز والمهرجان وغيرهما. كما انتشرت الملابس الفارسية بين العرب وشاع استعمالها كالسّراويل وغيرها.

أثر الموالي (ولا سيما الفرس) في الأنظمة الإدارية عند العرب حيث اقتبسوا منهم نظام الدّواوين وظلت هذه الدّواوين تستعمل اللغة الفارسية في العراق حتى خلافة عبد الملك بن مروان حيث نقلها إلى العربية.

وفضلاً عن ذلك فإن الفرس أثروا في الغناء العربي حيث أدخلوا كثيراً من الموسيقى الفارسية ووقعوا عليها شعرهم العربي. روى الأصفهاني أن سعيد ين مسجع..مولىٰ بني جمح من فحول المغنيين وأكابرهم أول من نقل غناء الفرس إلى غناء العرب[6] وقلده الآخرون في هذا المجال وقيل إن مسجع «سمع الغناء من الفرس لما أمر معاوية ببناء دوره في مكة وكان يأتيهم فيسمع غناهم على بنائهم فأعجب بألحانهم ونقله إلى الشّعر العربي ثمّ صاغ عليه»[7].

إن هذا النّص يتعلق بالحجاز ولكن أغلب الظّن أن هذا الفن انتقل إلى الكوفة بعد أن استوطنها عدد كبير من موالي الفرس.

لم يقتصر تأثير الموالي في حياة المجتمع الكوفي على عاداتهم وتقاليدهم ووسائل العيش فيها، وإنما تعداها إلى أبعد من ذلك فقد أثروا في أخلاق النّاس وطباعهم تأثيراً واضحاً قال الطّبري: «إن دينار من أسرة آل قارن إحدى الأسر الفارسية المشهورة كان يختلف إلى الكوفة فقام مرة خطيباً وقال: «يا معشر أهل الكوفة أنتم أول ما مررتم بنا كنتم خيار النّاس فعمرتم بذلك زمان عمر وعثمان ثمّ تغيرتم وفشت فيكم خصال أربع، بخل، وخب، وغدر، وضيق، ولم يكن فيكم واحدة منهن، فنظرت في ذلك فإذا ذلك من مولديكم فعلمت من أين أتيتم فإذا الحب من قبل النبط والبخل قبل فارس والغدر من قبل خراسان والضّيق من قبل الأهواز[8].

وأضاف الجاحظ إلى تأثير الموالي فقال: «لقد وصف أبو عمر ابن العلاء أهل الكوفة فقال: «لكم حذلقة النّبط وصلفهم ولنا دهاء الفرس وأحلامهم[9].

(ج) العبيد:

لقد خاض الكوفيون معارك كثيرة ولاسيما في الجهة الشرقية، انتصروا فيها جميعاً مما جعلهم يغنمون عدداً كبيراً من الأسرى يكاد لا يحصى عددهم، مختلفين باختلاف الأمم الّتي قاتلت الكوفيين وحاربتهم.

وقد كان هؤلاء الأسرى يوزعون على المحاربين كغنائم، الأمر الّذي أدى إلى انتشار الرّقيق وكثرته في بيوتهم. وذكر البلاذري في معرض حديثه عن أسرى الحرب واسترقاقهم فقال: «روى أن ابن الرّبيع بن الحارثي قاد بعض الحملات في سجستان، وقد غنم العرب في هذه المعارك أربعين ألفاً»[10].

وكان خالد بن الوليد في العراق «يسبي عيالات المقاتلة ومن أعانها وكان من جملة السّبايا حبيب أبو الحسن(والد الحسن البصري) وأبو زياد (مولى المغيرة بن شعبة)[11]»).

كما سبى خالد بن الوليد في عين التّمر من أبناء المرابطة سبايا كثيرة بعث بها إلى أبي بكر الصّديق فكان حمران بن ابان مولى عثمان بن عفان[12] من بنيها.

كان هؤلاء الرّقيق يعتبرون غنيمة فتأخذ الدّولة خمسهم لبيت المال ثمّ توزع الأربعة الأخماس الباقية على الجنود الّذين اشتركوا في المعارك بالتّساوي.

ومن مصادر الرّقيق الأخرى أيضاً الشراء حيث كان النّاس يجلبون الرّقيق من مناطق بعيدة وكان عدد كبير من تجار العبيد (النّخاسة) يرافقون الجيوش والحملات يشترون أعداداً هائلة من العبيد بالجملة بسعر زهيد جداً.

ولقد لعب النّخاسون اليهود دوراً كبيراً في تصدير العبيد إلى البلاد الإسلامية، وكانت الكوفة من هذه البلاد الّتي بياع العبيد ويشترون في أسواقها بأثمان باهظة حتى أضحت تجارة قائمة بذاتها وكان لهذه التجارة سوق خاص من أسواق

(١) المسماة: المجرفة التي يجرف بها الطّين والأوحال. الجاحظ: البيان والتّبين جـ١ ص٣٧.
(٢) الحوك: القبلة: القبلة الحمقاء (الرّجلة). الجاحظ: البيان والتّبين جـ١ ص٣٧.
(٣) الجاحظ: البيان والتّبين جـ١ ص٣٧.
(٤) الجاحظ: البيان والتّبين جـ١ ص٨٧، المبرد: الكامل جـ٢ ص٥٨٥.
(٥) المبرد: الكامل، جـ٢ ص٤٠٥، ابن عبد ربه: العقد الفريد، جـ٣ ص٤١٥.
(٦) الأصفهاني، الأغاني جـ٣ ص٨١
(٧) الأصفهاني: الأغاني جـ٣ ص٨١، النّويري: نهاية الأرب جـ٤ ص٢٣٢.
(٨) الطّبري، ج٣ ص٢٢٠.
(٩) الجاحظ: البيان والتّبين جـ٢ ص١٠٦.
(١٠) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٨٦.
(١١) الطبري: ج٢ ص٥٥٨.
(١٢) الطبري: ج٢ ص٧٧، ابن سعد: الطبقات الكبير ج١ قسم١ ص١٠٨.

الكوفة يسمى سوق السّماسرة[1]. وقد أصبحت هذه التّجارة من أهم موارد الثّراء في هذه المدينة ومصدراً لربح وفير، وقد روى عن إبراهيم التّيمي أنه اشترى من البصرة عبيداً بأربعة آلاف درهم وباعهم في الكوفة فربح أربعة آلاف درهم[2] فكان الربح ١٠٠٪.

كما اشترى شريح قاضي الكوفة عبدين بألف درهم ثمّ باعهما بعد مدّة بألف وأربعمائة درهم[3].

وثمّة مصادر أخرى للرقيق، فكان بعض العمّال والولاة يؤدون جزءاً من خراجهم أعداداً هائلة من الرقيق كما أن بعض أهل الكتاب كانوا يقدمون الرقيق من أولادهم على سبيل الجزية فضلاً عن بعض الخلفاء أو الولاة العرب الّذين كانوا يصالحون البلاد المغلوبة على دفع الجزية الّتي تتضمن أعداداً كبيرة من الرقيق تدفع كل سنة، فقد صالح عثمان بن عفان النوبة على أربعمائة رأس في السّنة[4]. وكان هذا الرّقيق يوزع على الأمراء وحاشيتهم أو يباع لهم.

كانت أسعار العبيد في الكوفة مرتفعة في كثير من الأحيان، فقد اشترى قاضي الكوفة شريح وصيفاً وجارية من السّوق بتسعمائة درهم[5] كما اشترى عبدين بألف درهم[6].

كانت أسعار العبيد تتوقف على أعمارهم وأجناسهم ومواهبهم وقابلياتهم ومقدار ما يحذقه العبد من فن أو صنعة[7]، وقد قال الأصفهاني: «أنّ الشّاعر نصيب كان عبداً حبشياً أسود أدخل على عبد العزيز بن مروان، فدعا المقربين فقال قوموا غلاماً أسود ليس به عجيب، قالوا مائة دينار قال إنّه واع للإبل يبصرها ويحسن القيام بحلبها قالوا حينئذ مائتا دينار قال إنّه يبري القسي ويثقفها ويرمي النّبل ويريشها قالوا أربعمائة دينار، قال إنّه راوية للشعر بصير به، فقالوا ستمائة دينار قال إنّه شاعر لا يلحق حذقاً قالوا ألف دينار، قال ادفعوها إليه»[8] كما بيع أحد العبيد بألف وأربعمائة[9].

وكان استئجار العبيد في الكوفة أمراً مألوفاً، فقد كان يستأجر لقاء مبلغ معين من المال مع طعامه[10].

(١) ماسنيون: خطط الكوفة ص٢٣.
(٢) أبو نعيم الأصفهاني: حلية الأولياء ج٤ ص٢١١.
(٣) وكيع: أخبار القضاة ج٢ ص٢٧٢.
(٤) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص٨٣، ديمومبين: النظم الإسلامية ص١٥٨.
(٥) وكيع: أخبار القضاة ج٢ ص٢٣٣.
(٦) نفس المصدر ج٢ ص٢٧٢.
(٧) الأصفهاني: الأغاني ج١ ص١٢٩، Bosissonde: Life and work, p. 102.
(٨) الأصفاني: الأغاني ج١ ص١٢٩.
(٩) وكيع: أخبار القضاة ج٢ ص٢٧٢.
(١٠) وكيع: أخبار القضاة ج٣ ص٧٦.

كانت الحكومة تمتلك أعداداً هائلة من العبيد نظير خمسها من أسرى الحروب، وقد سُميَ هؤلاء العبيد (رقيق الخمس)[11] وقد استخدمتهم في الحروب مع الجيوش المقاتلة لأنّ هؤلاء الأسرى كانوا عادة من الجنود المدربين على فنون القتال، كما استعملت الدّولة قسماً منهم كأدلاء أو مراسلين واستخدمتهم في حراسة المدينة وخفارتها وحراسة بعض المؤسسات الحكومية العامة (كالسّجون وبيوت المال وغيرها) كما استخدمتهم في حفر التّرع وشق القنوات وفي مقابل ذلك كانت الدّولة تمدهم بالكساء والطّعام وقد أعطت لهم في بعض الأحيان رواتب زهيدة جداً، أشار الطّبري إلى ذلك بقوله: «كان مما زاد عثمان بن عفان النّاس على يده أن رد كل مملوك بالكوفة من فضول الأموال ثلثه كل شهر يتسعون بها من غير أن ينقص أموالهم من أرزاقهم»[12].

لقد بلغ عدد هؤلاء العبيد في الكوفة حوالي ثمن السّكان العرب حيث كان سكان الكوفة قبل موقعة صفين سبعة وخمسين ألفاً ومواليهم ومماليكهم ثمانية آلاف[13].

وقد كون هؤلاء الرّقيق طبقة كبيرة في المجتمع الكوفي، وكانت هذه الطّبقة فقيرة معدمة استخدمت في الخدمة وسخرت في الأعمال الوضيعة الّتي كان العربي يأنف من مزاولتها الأمر الّذي ساعد العرب على الانصراف إلى الحروب والقتال والأدب والشّعر، ومن الأعمال الّتي زاولها العبيد حرفة الصّناعة، فقد أدى التّطور الصّناعي في الكوفة إلى استخدام أيدي عاملة كثيرة ورخيصة فاستقدم الرّقيق بأعداد كبيرة، وقد زاولوا المهن اليدوية المختلفة فكان منهم الحائكون والنّجارون وصانعو الحلي، كما اشتغلوا في الحدادة وصناعة الجلود وصناعة الأواني والخمور[14]، كما كانوا يخرزون الأحذية والخفاف ويخيطون[15] الثّياب ويشتغلون بالحجامة[16].

وقد أظهر عدد كبير من هؤلاء العبيد براعة فائقة في الحرف والصّناعات[17] المحلية كما اشتغل عدد من عبيد الكوفة في التّجارة بعد موافقة أسيادهم على ذلك، وكانوا يحصلون على أرباح كبيرة.

وقد كانت لهؤلاء العبيد الحرية التّامة في مزاولة ما يحبون من المهن على أن يدفعوا حصة من ربحهم لسادتهم، فاشتغلوا

(١١) ابن سلام: الأموال ص٤٣٩.
(١٢) الطّبري: ج٣ ص٣٢٨.
(١٣) ابن قتيبة: الإمامة والسّياسة ج١ ص١٣٤.
(١٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٢ ص٦٣، شفيق باشا: الرّق والإسلام ص٢٦. Mendeison: Slavery in the Ancient Near Eest, p. 112
(١٥) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٣ ص٤١٤.
(١٦) الجاحظ: التّاج ص٣٤٥.
(١٧) Fisher: A history of Europe, p. 1028.

في الزّراعة، حيث استخدم الأغنياء وملاكو الأراضي أفواجاً كبيرة في زراعة السّواد وقد كان لعبد الله بن الزّبير أرضاً جعل فيها عبيداً من الزّنوج يعمرونها له[١].

واستخدم هؤلاء العبيد في سد البثوق وإصلاح البطائح وجعلها أرضاً صالحة للزراعة وقد اشتغل هؤلاء تحت ظروف طبيعية سيئة ولم يتقاضَ هؤلاء العبيد أجراً على عملهم هذا وإنّما كان يكتفىٰ بإعطائهم الغذاء الرّخيص المكون من الدّقيق والتّمر[٢].

وقد استخدمت أيضاً أعداداً ضخمة من هؤلاء العبيد في السّفن التّجارية ولا سيما سفن القراصنة[٣].

كما استخدم العبيد في الكوفة في كسح الطّرق وتنظيفها وحفر التّرع[٤]، هذا وكانت الأسر العربية المترفة في الكوفة تقتني الرّقيق الأبيض والأسود دلالة على الرّفاه والجاه والسّلطان وتستخدمهم في بيوتهم وقصورهم حيث كان يعهد إليهم بالأعمال المنزلية وخدمة الحريم، فكان العبد يطبخ الطّعام ويخبز الخبز ويحفظ المؤن وغيرها.

أمّا الإماء والجواري فكان منهن من أصبحن أمّهات لعدد كبير من الخلفاء والأمراء عندما كن يتزوجن أسيادهن، كما كن يقمن بالخدمة في بيوت العرب وقصورها، ومن الجواري من كن يبعثن المرح في قلوب السّادة بما يتقنه من فنون الرّقص والغناء، وقد كان عدد الجواري يزداد كلما أوغل العرب في الفتوحات وكلما انغمسوا في التّرف.

وقد اقتنى ولاة الكوفة وسكانها عدداً كبيراً من هذه الجواري، وهناك إشارة واضحة إلى أنّ والي الكوفة المغيرة بن شعبة امتلك نحو من ستين أو سبعين أمة[٥].

وقد شجع ذلك النّخاسين على جلبهن من أقاصي المعمورة بكميات وافرة وبيعهن في أسواق الكوفة.

لم يكن العبد في الكوفة يقضي حياته كلها سجيناً في قيود الرّق والعبودية وإنّما كان باستطاعته أن يتحرر من العبودية بعد أن يفدي نفسه بمبلغ معين من المال يدفعه إلى سيده، أو يكتب بهذا المبلغ سنداً أو عقداً لسيده يدفعه عندما يتوافر لديه المال اللازم.

ورد في كتاب (المحبر) ذكر عدة أسماء من هؤلاء العبيد الّذين دفعوا لأسيادهم ثمن عتقهم بعقود أو سندات، ففي الكوفة مثلاً أشار إلى ثلاثة عبيد كوتب كل منهم على سبعين ألف درهم ثمناً لاسترداد حريتهم، وستة آخرين كوتب كل منهم على خمسين ألف درهم واثنين كوتب كل منهما على أربعين ألف درهم وخمسة آخرين كوتب كل منهم على ثلاثين ألف درهم وعبدين كوتب كل منهما على عشرين ألف درهم[٦]، وروي أنّ ابن سيرين كوتب على عشرين ألف درهم[٧].

لقد عاش عبيد الكوفة أعواماً طوال يرزحون تحت وطأة الاضطهاد الاجتماعي والعمل الشّاق، فاشتغلوا في الأعمال الحقيرة الّتي كان يأنف منها العرب كخرز الأحذية والخفاف وخياطة الثّياب[٨] والحجامة وكسح الطّرقات وتنظيفها[٩] وفي خدمة البيوت وغيرها.

كما استخدمت منهم أفواج كثيرة في زراعة الأراضي الواسعة في غسل التّربة، وكسح السّباخ عنها تحت ظروف صحية وطبيعية قاسية بدون أجر وإنّما اكتفوا بإطعامهم طعاماً بسيطاً دقيقاً[١٠] وتمراً.

وقد أدّت هذه الظّروف إلى أن يموت منهم أعدادٌ هائلة نتيجة لتعرضهم للأمراض والأوبئة، كما أنّ العرب اعتبروهم أقل منهم مستوى ومنزلة فكانوا يعاملوهم معاملة فيها الكثير من الازدراء والاحتقار حتّى لو اعتنقوا الإسلام فكانوا لا يسمحون لهم أن يسيروا معهم في صف واحد أو يتقدمون المواكب أو الأكل معهم.

كما إنّ نظرة الحكومة إليهم لم تكن بأحسن من نظرة الشّعب فقد وضعت قوانين جائرة، وأنظمة اجتماعية مجحفة غير عادلة، وفرضت عليهم الضّرائب الباهظة، كما أنّها لم تمنحهم شيئاً من حقوقهم السّياسية والاجتماعية.

(د) أهل الذّمة:

المسيحيون:

لقد سكن الكوفة عدد كبير من المسيحيين جاؤوا إليها من الحيرة والقرى المحيطة بها ولا سيما بعد زوال مجد الحيرة وعزّها وقد بقي هؤلاء على دينهم فحفظ لهم الإسلام أموالهم وحرياتهم ودماءهم وشعائرهم، وذلك بموجب العهد الّذي كتبه عمر لأهل الحيرة عند الفتح والّذي أعطوا بموجبه حريات واسعة.

وقد أقاموا في الكوفة كنائس عدة بموافقة الأمير ومساعدته حتّى أنّ خالد القسري والي الكوفة ذهب إلى أبعد من ذلك، حيث أمر ببناء كنيسة للمسحيين في الكوفة وكانت في ظهر قبلة المسجد[١١]، كما كان في الكوفة أسقفان أحدهما

(١) التّنوخي: المستجاد ص٣٤.
(٢) الجاحظ: البخلاء ص٣٠٦.
(٣) المقدسي: أحسن التّقاسيم في معرفة الأقاليم ص١٨.
(٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٣ ص٤١٤.
(٥) الأصفهاني: الأغاني ج١٤ ص١٣٨.
(٦) السّكري- محمد بن حبيب: المحبر ص٣٤٠- ٣٤٣.
(٧) ابن حجر العسقلاني: الإصابة ج٢ ص١١٨.
(٨) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٣ ص٤١٤.
(٩) الجاحظ: التّاج ص٢٤٥.
(١٠) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٣ ص٢١٣.
(١١) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٨٤، المبرد: الكامل ج٣ ص٨١٢، الأصفهاني: الأغاني ج١٩ ص٥٩، ترتون: أهل الذّمة ص١١١.

نسطوري والآخر يعقوبي حيث كان نصارى الكوفة طائفتين النّساطرة واليعاقبة[١].

وفي ظل هذا التّسامح تولوا الوظائف الكثيرة في الدّولة ولا سيما كتابة الدّواوين في الكوفة حيث كانت لغة الكتابة فيها بغير اللغة العربية، وذكر البلاذري أنّ عمر بن الخطاب عندما أرسل إليه سبايا الفتح جعل بعضهم رقيقاً ليتامى الأنصار وجعل البعض كتاباً وأدخلهم في خدمة الدّولة[٢].

كما اتخذ أبو موسى الأشعري له كاتباً نصرانياً[٣] بالإضافة إلى أنّ رجلاً مسيحياً تولى إدارة سجن قريب من الكوفة سنة ٢٦هـ عندما كان الوليد بن عقبة أميراً عليها[٤].

كما أنّ بعض المسيحيين نالوا حظوة عند بعض ولاة الكوفة يحسدهم عليها المسلمون فكان أبو زبيد النّصراني صديقاً حميماً للوليد بن عقبة[٥] والي الكوفة وجليسه في مجالس الشّراب والأنس.

وقد اشتغل مسيحيو الكوفة بالصّيرفة وكونوا سوقاً لها وصار في أيديهم أكبر محلات الصّيرفة في المدينة[٦]، حيث كان صيارفة اللخميين قديماً أساقفة الحيرة[٧].

كان هؤلاء الصّيارفة واسطة التّبادل الوحيدة بين مسكوكات الفرس الفضية ومسكوكات الرّومان الذّهبية[٨]، كما اشتغلوا بعقد القروض لتسهيل التّجارة فكانت تجارة التّبادل والصّيرفة في أيديهم[٩]، وقد أتقن هؤلاء المسيحيون عمل الصّيرفة ونظموه بشكل يشابه بنوك اليوم.

وعندما هاجر سكان الحيرة إلى الكوفة كان من بينهم عدد ضخم من التّجار لعبوا دوراً كبيراً في تنشيط تجارة المدينة لما لهم من خبرة واسعة وتجربة طويلة في هذا الميدان حيث كانوا يجوبون مناطق كثيرة من العالم طلباً للكسب والرّبح، وقد أثنى الهمداني على همة الحيريين في التّجارة وحبهم للمغامرة والكسب فقال: «وأبعد النّاس نجعة في الكسب بصري وحيري ومن دخل فرغانة القصوى والسّوس الأقصى فلا بد أن يرى فيها بصرياً أو حيرياً»[١٠].

(١) ماسنيون: خطط الكوفة ص٢٥.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص١٤٧.

(٣) ابن قتيبة: عيون الأخبار ج١ ص٤٣، تريتون: أهل الذّمة ص١٩.

(٤) الأصفهاني: الأغاني ج٤ ص١٨٤.

(٥) الطّبري: ج٣ ص٣٢٧، ابن خلدون: التّاريخ ج٢ ص٣٧٨.

(٦) البراقي: تاريخ الكوفة ص١٤٦.

(٧) ماسنيون: خطط الكوفة ص٢٤.

(٨) ماسنيون: خطط الكوفة ص٢٣.

(٩) ماسنيون: خطط الكوفة ص٢٢.

(١٠) ابن الفقيه الهمداني: البلدان ص١٥، ١٩١.

اليهود:

لقد عاش إلى جانب المسيحيين في الكوفة يهود جاؤوا إليها بعد تاسيسها من (نجران) في اليمن وأقاموا بالكوفة في محلة نسبت إليهم سميت (النّجرانية) كما جاء قسم كبير من يهود الحجاز بعد أن أجلىٰ عمر بن الخطاب جميع من قدر على إجلائه منهم[١١] وقدم الكوفة أيضاً عدد آخر من يهود الحيرة، وكان المسلمون ينظرون إليهم نظرة احتقار وازدراء، لشغبهم وخبثهم ولكنّهم استطاعوا أن يقيموا شعائرهم الدّينية بحرية تامة في ظل الإسلام وبنوا المعابد في الكوفة، وقد ذكر (بنيامين) بأنّه شاهد كنيساً لليهود في الكوفة عند زيارته لها[١٢] كما أنّهم زاولوا بعض الحرف الّتي كان العربي يأنف من مزاولتها فكان منهم الصّفارون والصّباغون وغيرهم.

وبمرور الزّمن استطاعوا أن يثبتوا أقدامهم في المجتمع الكوفي وأن يبسطوا سلطانهم على جميع المهن فزاولوا مهنة التّجارة والصّرافة والصّياغة ونسج الحرير وإدارة السّفن وصناعة الزّجاج[١٣].

ومن المهن الّتي اشتهر في مزاولتها النّصارى مهنة الطّب فقد كان أساقفة الحيرة يعالجون المرضى[١٤] فكانت أديرتهم مستشفيات يلجأ إليها المرضى طلباً للشّفاء والعلاج، فكان دير الكلب مشهور بعلاج إصابة عقر الكلب[١٥] وكان للحجاج بن يوسف طبيبان يهوديان يشرفان على شؤونه الصّحية[١٦].

وخلاصة القول عامل الخلفاء والولاة أهل الذّمة معاملة حسنة، فقد أمر عمر بن الخطاب أن يحسنوا معاملتهم وأن لا يكلفوهم فوق طاقاتهم، وكان كثيراً ما يسأل ولاته عن أحوالهم فيقولون له: «ما نعلم إلاّ وفاء وحسن ملكه»[١٧].

وقيل إنّ الوليد بن عقبة أمير الكوفة كان يدخل النّصارى المساجد ويجري عليهم الخمر والخنازير كل شهر، وضمن لهم رزقهم شهرياً[١٨].

كما أحسن علي بن أبي طالب معاملتهم حيث ساوى في العطاء بين النّصارى وبين العرب والموالي[١٩] وكان لعمر بن عبد العزيز مواقف طيبة تجاه أهل الذّمة كتب إلى عامله

(١١) إبراهيم بن عبد القادر: التّنبيه على ما وجب من إخراج اليهود من جزيرة العرب ص٩ (مخطوط).

(١٢) رحلة بنيامين ص١٤٠، تريتون: أهل الذّمة في الإسلام ص٥٩.

(١٣) تريتون: أهل الذّمة في الإسلام ص٢٠٥.

(١٤) الأصفهاني: الأغاني جـ١١ ص٤٠.

(١٥) العمري: مسالك الأبصار ص٢٥٤.

(١٦) ابن العبري: تاريخ مختصر الدّول ص١٩٤.

(١٧) الطّبري: جـ٤ ص٢١٨.

(١٨) البلاذري: أنساب الأشراف جـ٥ ص٣١.

(١٩) اليعقوبي: التّاريخ جـ٢ ص١٥٩.

بالكوفة قائلاً «انظر من كان من أهل الذّمة فاظهر الإسلام فاسقط الجزية عنه»[1] كما أسقط عمر بن عبد العزيز الجزية عن أهل الذّمة، فمن كبرت سنه وضعفت قوته وولت مكاسبه أجرى عليه قوته من بيت مال المسلمين[2].

كما تسامح المسلمون مع أهل الذّمة في شرائهم الجواري المسلمات وتسريهن[3].

هذا ولم تقتصر سيطرة أهل الذّمة في الكوفة على مهنة التّجارة والصّيرفة وإنّما امتدت إلى وظائف الدّولة فاصبحوا خطراً يهدد المجتمع الكوفي بصورة خاصة والمجتمع الإسلامي بصورة عامّة، وقد تنبه إلى هذا الخطر الجسيم بعض الولاة فغيروا من سياستهم تجاه أهل الذّمة فعاملوهم بقسوة[4].

كما تنبه الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى ذلك الخطر فنهى أن تكون يد الذّمة هي العليا أو أن يكون لهم الجاه والسّلطان فارسل الرّسائل الكثيرة إلى ولاته يقول فيها: «أمّا بعد فإنّ الله عز وجل أكرم بالإسلام أهله، وشرفهم وأعزهم وضرب الذّلة والصّغار على من خالفهم وجعلهم خير أمّة أخرجت للنّاس، فلا تولين أمور المسلمين أحداً من أهل الذّمة تبسط أيديهم والسنتهم وتذلهم بعد أن أعزهم الله وتهينهم بعد أن أكرموا الله تعالى وتعرضهم لكيدهم، والاستطالة عليهم ومع هذا فلا يؤمن غشهم إيّاهم فإنّ الله عز وجل يقول: «يا أيّها الّذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم»[5].

وكتب عمر بن عبد العزيز أيضاً إلى ولاته يقول: «لا تتخذوا اليهود والنّصارى أولياء بعضهم أولياء بعض».

كما كتب إلى عدي بعزل من كان من العمال من أهل الذّمة وأن لا يستعين بهم فعزل ابن رأس البغل وابن زادا نفروج بن بيري وأقرزاد ابن الهربذ، كما هدم بعض الخلفاء كنائسهم وأقاموا فيها المساجد[6].

وجاء في عيون الأخبار «ذكر للخليفة عمر بن الخطاب غلام كاتب حافظ من أهل الحيرة وكان نصرانياً فقيل له لو اتخذته كاتباً فقال: «لقد اتخذته بطانة من دون المؤمنين»[7]. وهذا النص يؤيد ما ذهب إليه البلاذري من أن عمر بن الخطاب قد منع ولاته من توظيف أهل الذّمة.

(١) البلاذري: أنساب الأشراف جـ٧ ص٤٠٥ (مخطوط).
(٢) البلاذري: أنساب الأشراف جـ٧ ص٤٠٦ (مخطوط).
(٣) الأصفهاني: الأغاني جـ١٩ ص٥٩.
(٤) تريتون: أهل الذّمة في الإسلام ص١٣٨.
(٥) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ٧ ص٤٢٩ (مخطوط).
(٦) وجاء في Repertoire نص يقول: ربنا الله لا نعبد إلاّ الله أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة الّتي كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين في ذي الحجة سنة سبع وثمانين.
Chrovologique d,Eigraphie Araḃe, vol. 1, p, 16.
(٧) ابن قتيبة: عيون الأخبار جـ١ ص٤٣.

كان أهل الذّمة في حياتهم الاجتماعية الخاصة يختلفون اختلافاً كبيراً في لباسهم، وهيئتهم، وسلوكهم. وضح ذلك في العهد الّذي كتبه عمر بن الخطاب لأهل الذّمة ولا سيما النّصارى[8] الّذي طلب منهم بموجبه أن لا يتشبه هؤلاء المسيحيون بالمسلين في لباسهم وعاداتهم وجميع ما يتعلق بهم[9] فكان لباسهم يتكون من القميص والسّراويل إلا أنهم كانوا يشدون الزّنانير على أوساطهم كما أنهم لبسوا فوق رؤوسهم غطاء يختلف عن القلنسوة أو العمامة كما منعوا من لبس ثياب الخز والقصب والقبا[10]، لأن ذلك من لباس الطّبقة الأرستقراطية العليا في مجتمع الكوفة كما منعوا من لبس النّعال وسمح لهم أن يلبسوا الحلي ولا سيما الخواتم الفضية المنقوشة بنقوش غير عربية[11]. كما أنه كانت تجز مقادم رؤوسهم وتفرق نواصيهم[12]. وكان اليهود والنّصارى يصبغون عادة رؤوسهم باللون الأسود[13].

هذا ويبدو أن الولاة تساهلوا في مراقبة أهل الذّمة وسمحوا لهم أن يغيروا من ميزاتهم التي نص عليها العهد ويتضح ذلك من كتاب عمر ابن عبد العزيز إلى أحد ولاته في العراق، فقال «أما بعد فقد بلغني أن كثيراً من قبلك من أهل الذّمة قد لبسوا العمائم وتشبهوا بالمسلمين في زيهم فامنعهم من ذلك أشد المنع وخذهم بأن يحلقوا أوساط رؤوسهم»[14].

(هـ) السّريان:

كان هؤلاء السريان يسكنون الجزيرة الفراتية في الرّها ونصيبين وجنديسا بور وحران في ديارات منتشرة فيها كما سكنوا أيضاً الحيرة والأديرة الموجودة في أطراف الحيرة والنّجف ثم قدموا الكوفة واستقروا بها واشتغلوا بالعلم. فقد قام السّريان بنشر الفلسفة اليونانية بالعراق وما حولها. وخاصة مذهب الأفلاطونية وأخذوا ينقلون الكتب اليونانية إلى لغتهم السّريانية. وكانت المناطق التي سكنوها ولا سيما حران مركزاً من مراكز الثّقافة اليّونانية والرّياضيات والفلك والفلسفة[15].

وقد خدم السّريانيون العلم والفلسفة بما ترجموا من مؤلفاتهم في الطب والطّبيعات والمنطق وغيرها[16].

(٨) أبو يوسف: الخراج ص٧٢، ٧٣.
(٩) ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ١ ص١٤٩.
(١٠) أبو يوسف: الخراج ص٧٣.
(١١) ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ١ ص١٤٩.
(١٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ١ ص١٤٩.
(١٣) لقد ذكر أن الرّسول قد نهى الخضاب باللون الأسود فقال ((غيروا هذا الشّيب وجنبوه السّواد)) ابن سعد، الطّبقات جـ١ قسم ٢ ص١٤٢. كما قال ((لا تتشبهوا باليهود والنّصارى)). ابن سعد: الطّبقات، جـ١ ص١٤٠.
(١٤) البلاذري: أنساب الأشراف جـ٧ ص٤١١ (مخطوط).
(١٥) أحمد أمين: ضحى الإسلام جـ١ ص٢٧٠.
(١٦) أحمد أمين: ضحى الإسلام جـ١ ص٢٧١ و ٢٧٢.

(و) النّبط:

ومن أهل الذّمة أيضاً (النّبط) وهم خليط من الكلدانيين والسّريانيين والآراميين، وقد أطلق عليهم اسم (الأنباط) وكانت الأكثرية السّاحقة منهم قد اعتنقت المسيحية منذ قرون خلت[١].

وأشار المقدسي إلى أن استعمال كلمة (نبط) تدل على الفلاحين الذّين يتكلمون اللغة الآرامية في العراق، خصوصاً في منطقة البطيحة[٢].

وقيل إن العرب كانوا يطلقون لفظة (النّبط) على سكان العراق الذّين لم يكونوا رعاة ولا جنوداً[٣]. وقد أطلق المسعودي[٤] على فلاحي العراق (النّبط) و(السّريان).

ويبدوا أنه كان للنّبط صفات خلقية خاصة تختلف عن الصّفات الخلقيّة الّتي يتحلّى بها العرب وقد استطاعوا أن يؤثّروا في المجتمع الكوفي واضحاً فقد ذكر الجاحظ أن أبا عمر بن العلاء كان يقول لأهل الكوفة(لكم حذلقة النّبط وصلفهم ولنا دهاء الفرس وأحلامهم)[٥].

ولقد قامت الطّبقة المتوسطة من الآراميين بدور مهم في الحركة الثّقافيّة في العراق وظهر من بينها عدد كبير من الأطباء المشهورين والفلكيين والعلماء والمترجمين. وقد كانت حرّان مركزاً للثقافة الآراميّة وقد انتشر كثيرون منهم في المنطقة الواقعة بين الكوفة والبطائح وواسط

ولذلك لم تتاثر الحضارة العربيّة في الكوفة بالحضارة الفارسيّة فقط بل تأثّرت بالحضارة الرّومانيّة الإغريقيّة بواسطة، هؤلاء السّريان من النّساطرة المنتشرين في العراق ولا سيّما (الحيرة)[٦].

وقد كان هؤلاء النّساطرة الصّلة الّتي كانت تربط بين اليونان والعرب.

وكان ذلك واضحاً بما خلفتها من المدارس النّسطريّة لهم من ثقافة وعلم.

* * *

(١) مجلة المجمع العلمي العراقي: خالد بن الوليد في العراق جـ١ ص ٨٣سنة ١٩٥٤.

(٢) المقدسي: ص١٠٨.

(٣) ياقوت: معجم البلدان جـ٣ ص٦٣٤.

(٤) المسعودي: التّنبيه والإشراف ص٧، ٣٧.

(٥) الجاحظ: البيان و التّبيين جـ٢ ص ١٠٦.

(٦) شوقي ضيف: التّطور و التّجديد في الشعر الأموي ص ٤١.

الفصل الثّاني

بعض مظاهر الحياة الاجتماعيّة العامة الّتي اشترك فيها جميع السّكان

- الحياة في دور الكوفة وقصورها.
- الحمامات.
- اللّهو والمجون.
- الغناء.
- الأعياد.
- حلبات الخيل.

عرضنا لعناصر السّكان في مدينة الكوفة وأشرنا بقدر ما سمحت به المراجع لألوان من حياتها الاجتماعيّة، وقد بقى أن نعرض لبعض مظاهر الحياة الاجتماعيّة العامة الّتي شارك فيها السّكان جميعاً على اختلاف أجناسهم ونحلهم.

الحياة في دور الكوفة وقصورها:

بعد أن تم تخطيط الكوفة على النّحو الّذي رأيناه خصص مكان معيّن لبناء الدّور وفق تخطيط مدروس بعد أن عينوا فيه الطّرق والمناهج، وعينوا موقع أهل اليمن وموضع أهل الحجاز. وكانت بيوت أهل الكوفة أول الأمر من الخيام وبيوت الشّعر والقصب[٧] حتّى إذا غزوا قلعوها وتصدقوا بها، وإذا عادوا بنوها من جديد وظلّت بيوتهم على هذه الحالة حتّى شبّ حريق في الكوفة[٨]، وأحرقت البيوت كلّها فبنيت البيوت من الطّين بعد أن استاذنوا عمر بن الخطّاب في البناء فاذن لهم وطلب منهم أن لا يزيد أحدهم على ثلاثة بيوت والاّ يطاولوا في البنيان وقال: الزموا السّنة تلزمكم الدّولة[٩].

وقد كانت هذه البيوت الّتي بنيت من الطّين ساذجة البناء والتّنظيم تحتوي على غرفة أو غرفتين أو ثلاث كما أمرهم عمر بن الخطّاب وقد تطوّر هذا البنيان بمرور الزّمن حيث بنت القبائل بيوتها من اللّبن في غير ارتفاع في أيام المغيرة بن شعبة[١٠]، وظلّت كذلك حتّى بنيت أبوب البيوت من الآجر والصّخر في إمارة زياد بن أبية[١١]. وقد كان في الكوفة حوالي خمسين ألف دار للعرب من ربيعة ومضر، وأربعة وعشرين ألف دار لسائر العرب وستّة آلاف دار لأهل اليمن[١٢]. يضاف إلى هذا العدد الضّخم من الدور بيوت الموالي والعبيد الّذين عاشوا فتاتاً من بين القبائل ولم ينتسبوا إلى أحد.

(٧) الطّبري، جـ٣ ص ١٤٧.

(٨) الطّبري، جـ٣ ص ١٤٨.

(٩) الطّبري، جـ٣ ص ١٤٨، ابن خلدون:التّاريخ جـ٢ ص ٣٤٢.

(١٠) البراقي: تاريخ الكوفة ص ١٨١.

(١١) البراقي: تاريخ الكوفة ص ١٨٠.

(١٢) ياقوت: معجم البلدان جـ٧ ص ٢٩٣.

ولمّا تقدم العرب في الحضارة ومضى على تاسيس الكوفة سنين طويلة تطوّر فن البناء بطبيعة الحال، وبالتالي تطوّر بناء البيوت حيث أصبح الشّكل يلائم حياة العصر. فبنى الأمراء والأغنياء بيوتهم من الطّابوق (الآجر) والصّخر كما بنت الدّولة مدناً كبيرة من الطّابوق أيضاً، فقد بنى يزيد بن عمر بن هبيرة حيّاً قرب مدينة الكوفة على نهر الفرات فنزلها وكان قد بقي منها جزءاً يسيراً لم يتم، فجاءه كتاب مروان يامره باجتناب مجاورة أهل الكوفة فتركها وبنى ابن هبيرة قصراً عرف بقصر ابن هبيرة بالقرب من جسر سورا. فلما تولى أبو العبّاس السّفاح الخلافة نزل تلك المدينة(الّتي بناها ابن هبيرة)، وأتم مقاصيره فيها، وأحدث فيها بناء، وسمّاها بالهاشميّة[1].

الحمامات:

كان للحمامات أهميّة كبيرة في الأقطار الإسلاميّة، وكان يُعنىٰ بتشييدها على نظام يضمن للمستحم أن لا يؤذيه الانتقال السّريع من البرد إلى الحر، أو العكس فكان في كل حمام ثلاثة أقسام كل منها أسخن من الّذي يسبقه (وتسخن القاعات بواسطة إيقاد النّار تحت أرضها)[2].

لقد بنى العرب في مدينة الكوفة عدداً من الحمامات بعد أن تطوّر العمران فيها. وقد كانت الحمامات في بداية الحكم الأموي في الكوفة محدودة حيث لم يكن بناؤها سهلا وميسوراً، وقد كان لا يسمح لأحد أن يبني حماماً إلا بعد الحصول على إجازة من قبل الحكومة[3]وكان الولاة يمنعون بناء الحمّامات داخل المدينة لأنها تضر بالسّكان ولا يسمح ببنائها إلا في المناطق الّتي خصصت لإقامتها وقد أشار البلاذري إلى أن زياد بن أبيّة كان يمنع بناء الحمّامات إلا في المواضع الّتي لا تضر باحد[4].

وكانت هذه الحمامات تدر أرباحاً كثيرة جداً وقد ذكر البلاذري: إن حمّاماً في البصرة يحصل منه صاحبه في كل يوم[5] الف درهم.

وكان من أشهر الحمّامات، حمّام(أعين) وينسب إلى أعين مولى سعد بن ابي وقّاص[6] وحمّام عمر بن سعد بن أبي وقّاص[7] وحمّام أبي برده[8] وحمّام فطن بن عبد الله[9]، وحمّام عمر بن حريث[10]. وحمّام المهبذان[11].

من هذا نرى أن بتاء الحمّامات هنا استقر على أشراف الكوفة وسادتها. ولم يسمح لغيرهم بمزاولة هذه المهنة.

اللّهو والمجون:

لقد طغت على الكوفة موجة عارمة من اللّهو والمجون ولا سيّما بعد أن قلّت الفتوحات ولم يبق ما يشغل تفكير الشّباب وأصبح لديهم فراغ كبير ولم يكن لديهم ما يملأ هذا الفراغ غير اللّهو والعبث والمجون الّذي توفرت لديهم مقوماته.

ومما ساعد الطّبقة المترفة (الارستقراطية) على الانغماس في هذه الحياة ما أتيح لها من ثراء فاحش وجاه عريض وفتوة وحيوية، فكان للأموال التي تكدست والضّياع الواسعة مكنتها من أن تنثر المال على ملذاتها ومجونها وقد جعلوا من دورهم مسرحاً تزدحم فيها الجواري والمغنيات.

كما أن هناك عامل آخر هو انتشار موجة الغناء والموسيقى كان من العوامل التي ساعدت على انتشار اللهو والمجون[12].

يضاف إلى ذلك اختلاط العناصر الأجنبية بالمجتمع العربي ولا سيما الفارسية منها التي عاشت في المجتمع الكوفي وهي تحمل معها تقاليدها الأجنبية وحياتها الاجتماعية الخاصة التي أخذت تؤثر على العرب، فتغير من تقاليدهم وحياتهم الاجتماعية[13].

وثمة أمر آخر أثر في حياة سكان الكوفة هو قرب الحيرة من مدينتهم واتصالهم الوثيق بها فتأثروا بالحيريين كثيراً. وكان أهل الحيرة يشربون الخمرة بكثرة «حيث كانت الحيرة مشهورة بخماراتها[14] الكثيرة وحسن الغناء فيها[15].

وكان يقصد مدينة الحيرة كثير من الكوفيين يتحررون من قيود الوقار التي يفرضها عليهم بقاؤهم في الكوفة[16] بعيدين عن أعين الرّقباء ورجال الدّين، وكانت أديرة الحيرة وبعض القرى المحيطة بالكوفة والقريبة منها وبيوت النّبط مراكز لشّرب الخمر والتّحرر واللهو. وكان لجمال الطّبيعة في هذه الأماكن اثر فعال ولا سيما الأديرة التي امتازت بالبساتين والأشجار والرّياحين فضلاً عن وجود المغنيات وإتاحة الفرصة لاختلاط النّساء بالرّجال[17].

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٨٥، ياقوت: معجم البلدان جـ٤ ص١٢٣.
(٢) زكي حسن: فنون الإسلام ص٣٨.
(٣) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٤٨.
(٤) البلاذري: أنساب الأشراف جـ٤ ص٤٤١(مخطوط).
(٥) البلاذري: فتوح البلدان:ص٣٤٨.
(٦) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٨٠، الأصفهاني: الأغاني جـ١٨ ص١٢٩.
(٧) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٨٠.
(٨) نصر بن مزاحم. وقعة صفين جـ٣ ص١٥٠.
(٩) الطّبري جـ٧ ص١١٩.
(١٠) الطّبري، جـ٧ ص ١١٩.
(١١) الطّبري، جـ٧ ص ١٢٠.
(١٢) يوسف خليف: حياة الشّعر في الكوفة ص١٩٤ (غير مطبوع).
(١٣) يوسف خليف: حياة الشّعر في الكوفة ص١٩٤ (غير مطبوع).
(١٤) الأصفهاني: الأغاني جـ٢ ص١٢١.
(١٥) الأصفهاني: الأغاني جـ٢ ص١٢١ز
(١٦) المسعودي: مروج الذّهب جـ٢ ص١٠٤، الأصطخري: المسالك والممالك ص٨٢
(١٧) الشّابشتي: الدّيارات ص٦٠، ٦١.

ولكن هذه الحياة الماجنة لاقت مقاومة شديدة أول الأمر، من بعض الولاة فقد استطاع الحجاج أن يوقف تيار المجون خلال حكمه الرّهيب بسبب رقابته الشّديدة وعينه السّاهرة. وقد شجع الحجاج الشّعراء على أن يعنوا بالسّياسة وأن يتركوا اللهو والمجون والنّظم فيه وعاقب من خالف ذلك عقاباً شديداً فخلت مدينة الكوفة في عصره من مرح الشّعراء وألحان المغنيين، وانتقل قسم منها إلى الحيرة وظلوا هناك حتى وفاة الحجاج. وقد جرت محاولات أخرى من بعض الولاة الذّين تولوا أمر الكوفة بعد الحجاج في إصلاح الوضع الاجتماعي في هذه المدينة فقد حاول خالد القسري أن يضع حداً لتلك الأوضاع الفاسدة التي تفاقمت أثناء حكمه ولكن جميع محاولاته باءت بالفشل ولم يحقق شيئاً رغم الجهود الكبيرة التي بذلها في هذا السّبيل، فمن الإجراءات التي اتخذها خالد القسري أن هدم منار المساجد وحطها عن دور النّاس بعد أن بلغه شعر لرّجل من الموالي (موالي الأنصار) يقول فيه:

ليتني في المؤذنين حياتي
أنهم يبصرون من في السّطوح
فيشيرون أو تشير إليهم
بالهوى كل ذات دل مليح[1]

كما حرم خالد الغناء في أيامه لما كان يحدث في مجالس الغناء من عربدة ولم يبحه إلا بعد أن شرط أن لا يحضره من كان سفيهاً أو معربداً[2]. وحرم خالد بعضهم من عطائه نتيجة لسّكرهم ومجونهم ولم يصرف العطاء لهم إلا بعد أن تعهدوا بالكف عن الموبقات[3].

ومن قبيل هذه الأوضاع الشّاذة التي ظهرت في بيئة الكوفة الدّعوة إلى الإباحية- التّحلل من القيود الأخلاقية- التي أثرت في حياة الشعراء والأدباء الكوفيين الذّين أغرتهم اللذة والمتعة. وقد كان هؤلاء شباناً يغريهم الجمال وتمدهم فتوتهم وشبابهم ولا يجدون من يقف في طريقهم في بيئة حوت ما يطلبون وما يحبون، وقد وصف طه حسين هؤلاء المجان قائلاً «فهم كانوا يجتمعون في دورهم وهم كانوا في الأديار وهم كانوا يبحثون في البساتين والحانات وعلام كانوا يجتمعون؟ على الشّراب والغناء والعبث بالنّساء والغلمان يسرفون في ذلك إسرافاً لا يعدوه إسراف ويسخرون في أثناء هذا الإسراف من أصول الدّيانات والأخلاق والنّظم الاجتماعية التي تحظر عليهم ذلك وتعرضهم من أجله لألوان العذاب[4].

(١) المبرد: الكامل جـ٢ ص٨١٢، ٨١٣.
(٢) الأصفهاني: الأغاني، جـ٢ ص١١٩، ١٢٠، النّويري: نهاية الأرب جـ٤ ص٢٨٨.
(٣) الأصفهاني: الأغاني جـ٢٠ ص١٧٨.
(٤) طه حسين: حديث الأربعاء جـ٢ ص٢٠٦.

ولم تقتصر حياة المجون واللهو على الذّوات من أبناء الطّبقة الارستقراطية وإنما تعدتها إلى غيرهم من أبناء الطّبقة الفقيرة فقد أشار الأصفهاني إلى رجل من أهل الكوفة كان مولي بني أسد أسمه بكر بن خارجة، وكان هذا وراقاً ضيق العيش مقتصراً على التكسب من الوراقة، وقد صرف هذا جل ما يكسبه على النّبيذ، وكان معاقراً للشّراب في منازل الخمارين وحاناتهم عذب الشّعر مليحاً مطبوعاً ماجناً، وكان يبكر بقنينتين من شراب إلى خراب من خرائب الحيرة فلا يزال يشرب إلى أن يسكر ثمّ ينصرف[5].

ونتيجة لما يأتي به شاربو الخمر من المنكرات عند شربهم، حرم بعض أمراء الكوفة بيع الخمر من خماري الحيرة فركب إلى هناك فكسر أواني النّبيذ جميعها ولما جاء بكر ليشرب عندهم كعادته وجد الخمر مسكوباً في الرّحاب والطّرقات فبكى طويلاً وقال شعراً في هذا[6].

يا لقومي لما جنى السّلطان
لا يكونن لما أهان الهوان
قهوة في التراب من حلب الكـ
ـرم عقاراً كانها الزّعفران
قهوة في مكان سوء لقد صـ
ـار سعد السّعود ذاك المكان

وقد أشار إلى رجل آخر اسمه عمار[7] وهو همداني عربي كان لين الشّعر ماجناً سكيراً معاقراً للشّراب والخمر وقد حدث عدة مرات أنه كان ينصرف من الحانات فتلقاه الشّرطة فيضربونه الحد، وكان لا يهمه أن يضرب وإنما يهمه أن يشرب الخمر وظل حياته كلها يشرب الخمر ويرتكب المنكرات حتى مات[8].

ولقد حفلت الكوفة بكثير من المجان حتى أن الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك بعث يطلب له جماعة ينادمهم من ظرفاء أهل الكوفة فسمى له مطيع بن إياس، وحماد عجرد، والمطيعي المفتي المشهور فكتب في إرسالهم إليه، فما يزالوا ينادمونه إلى أن قتل فعادوا إلى الكوفة جميعهم[9].

وقد أقام أهل الكوفة بيوتاً وضعوا فيها الجواري للترفيه عن النّاس وكان يقصد هذه البيوت الأغنياء من أبناء الطّبقة الارستقراطية ليشربوا الخمر فيها ويأتوا الفاحشة ويقوموا بأعمال السّفه والمجون، وكان من أشهر هذه البيوت في الكوفة دار ابن رامين.

(٥) الأصفهاني: الأغاني جـ٢٠ ص٨٧.
(٦) الأصفهاني: الأغاني جـ٢٠ ص٨٧ز
(٧) وهو عمار بن عمرو ولقب ذا كناز، الأصفهاني: الأغاني جـ٢٠ ص١٧٤.
(٨) الأصفهاني: الأغاني جـ٢٠ ص ١٧٤، ١٧٥.
(٩) الأصفهاني: الأغاني جـ١٣ ص٧٦.

وقد شاع في الكوفة أيضاً حب الغلمان والتّغزل بهم، وكان بكر ابن خارجة يتعشق غلاماً نصرانياً يقال له (عيسى بن البراء) تغزل به كثيراً[1] فقال:

زناره في خصره معقود
كانه من كبدي مقدود

من ذلك نرى كيف غلب المجون على المدينة الكوفة فكانوا يرتكبون الفواحش ويجهرون بها دون خوف أو حذر.

الغناء:

ظهر الغناء في الكوفة منذ فجر تاريخها وافداً إليها من مدينة الحيرة وقد أخذ هذا الغناء في التّطور وكان خلاصة هذا التّطور ظهور المغنى حنين في الحيرة في أيام خالد القسري وكان حنين من فحول المغنيين، وقد قيل إن الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان مر بالكوفة فلما علم حنين وقف له بظهر الكوفة، ومعه عود وزامر له، فلما مر به هشام تعرض له فسأل عنه هشام فقيل له إنه حنين، فأمر به هشام فحمل في محمل على جمل وعديله زامره وسيره أمامه وهو يغني له فأمر له هشام بمائتي دينار وللزّامر بمائة[2].

ولما ولي بشر بن مروان الكوفة كان حنين يحضر إلى مجلسه الخاص فيغني له فيأمر له بالجوائز العالية الكبيرة[3] وقد ذكر البلاذري بأن بشر «كان صاحب شراب ينادم عليه»[4].

ولقد أراد حنين أن ينافس مغني الحجاز فذهب إلى حمص ولكنه فشل وقد قدر لغناء الكوفة أن ينهض بانتقال (ابن رامين) إلى الكوفة حيث غنت جواريه غناءاً كوفياً ممزوجاً بفن الحجاز، فادى هذا المزج إلى ظهور لون خاص من الغناء الجديد. وقد كانت في الكوفة بيوت عامة فيها الجواري والقيان يملكهن شخص فيعرضهن للغناء وكان يأتيه الشّبان لسماعهن والإنفاق عليهن. ومن أشهر هذه البيوت بيت (ابن رامين) كما قلنا سابقاً الذّي وفد إلى الكوفة مهاجراً من الحجاز، وقد أشار صاحب الأغاني إلى ابن رامين بقوله: كان له منزل في الكوفة وله جوار ومغنيات أشهرهن (سلامة الزّرقاء) وكان يغشاها الفتيان بكثرة للسّماع والشّراب وممن كان يختلف إليه روح بن حاتم المهلبي ومحمد بن الأشعث ومعن بن زائدة وابن المقفع يرافقهم في ركابهم أصدقائهم الشّعراء والمجان وغيرهم ينفقون المال بغير حساب عن سعة وينشدون أشعار الغزل[5].

وقد ضرب لنا الأصفهاني مثلاً عن مقدار ما كان مصرف في هذه الدّور من مال فقال: اجتمع معن بن زائدة وروح بن حاتم وابن المقفع عند ابن رامين فلنا تغنت الزّرقاء وسعده ذلك بعث لها (معن) بدرة فصبت بين يديها، وبعث روح لها أخرى صبت بين يديها ولم يكن عند ابن المقفع دراهم، فبعث فجاء بصك ضيعته، وقال هذه عهدة ضيعتي خذيها، فاما الدّراهم فما عندي منها شيء[6]. ولم تكن دار ابن رامين وحدها وضعت فيها الجواري والقيان وإنما كانت هناك دوراً كثيرة منها دار زريق بن منبح مولي عيسى بن موسى وكان شيخاً كريماً نبيلاً يجتمع إليه أشراف الكوفة من كل حي[7].

لقد جذبت الكوفة في أواخر أيام بني أمية أصحاب الجواري حين وجدوا الكوفة سوقاً رائجة وأرضاً خصبة المكسب عن طريقهن فاقاموا بيوتاً زينوها بالقيان والجواري فكانت مقصداً لعشاق الهوى والحب يؤمها دون تحرج أو خوف.

وقد استطاعت هذه الجواري أن يثرن الفتنة في أرجاء الكوفة وأن ينشرن الإغراء في نفوس الشّباب بما كن يمارسنه من ضروب الإغراء والفتنة[8].

وقد كن يلبسن ثياب شفافة جداً تشف عما تحتها ويبرزن عن مفاتنهن ويضعن الأصباغ على وجوهن.

وفي هذا الجو نما الغناء وازدهر، وكان من أشهر المغنيات اللواتي ذاع صيتهن جواري حسان هن (سلامة الزّرقاء وربيحة وسعدة) أخرجن للكوفة فناً جديداً في الغناء كان حصيلة التّزاوج بين الفن الكوفي والفن الحجازي وكان من نتيجة ما يحدث في هذه البيوت العامة من عربدة وسكر أن أمر بعض ولاة الكوفة بتحريم مجالس الغناء كما فعل خالد القسري.

وقد كانت الكوفة مقصد عشاق الهوى والشّباب وعشاق الملذات والطّرب يقدمون إليها للاستمتاع بجمال مغنياته وجواريه وحسن الغناء فيه، كما كانت الكوفة في هذا العصر مقصداً لبعض المغنيين المشهورين في أنحاء مختلفة من الجزيرة العربية ليقضوا فيها أوقاتاً طيبة من الرّاحة، وقيل إن عبيد الله بن سريح (المغني المشهور) أتى من الحجاز إلى الحيرة ونزل منزل حنين في ولاية بشر بن مروان ومعه ثلاثمائة دينار ليصرفها في هذا البلد لما بلغه من طيب الحيرة وجودة خمرها وحسن الغناء فيها[9].

---

(١) الأصفهاني: الأغاني جـ٢٠ ص٨٧.
(٢) الأصفهاني: الأغاني جـ٢ ص١١٧، النويري: نهاية الأرب جـ٤ ص٢٨٧.
(٣) الأصفهاني: الأغاني جـ٢ ص١٢٠.
(٤) البلاذري: أنساب الأشراف جـ٥ ص١٦٦ (مطبوع).
(٥) الأصفهاني: الأغاني جـ١٣ ص١٢٧.
(٦) الأصفهاني: الأغاني جـ١٣ ص١٢٦.
(٧) الأصفهاني: الأغاني، جـ١٣ ص١٢٢.
(٨) يوسف خليف: حياة الشّعر في الكوفة ص١٨٧ (غير مطبوع).
(٩) الأصفهاني: الأغاني جـ٢ ص١٢١.

كما قدم المغني ابن محرز إلى الكوفة أيضاً طلباً في الكسب والرّبح[1] عندما علم بشغف أهل الكوفة وحبهم الغناء والطّرب، فاصاب منها ألف دينار[2].

وإلى جانب مجالس الغناء العامة هذه كانت هناك مجالس خاصة يقيمها عادة بعض الشّعراء والأدباء بعيدين عن صخب العامة[3].

وقد روى صاحب الأغاني روايات كثيرة تظهر مدى إقبال سكان الكوفة ولا سيما الشّعراء منهم على الحفلات الخاصة ومعاشرة المغنيات والذّهاب إليهن في ساعة الفجر حتى أن بعض الولاة كانوا يعقدون مجالس الغناء ولا سيما بشر بن مروان[4] الذّي اتخذ المغني الكوفي حنين نديماً له وكان بشر يرتدي عادة في مجالس السّمر الخاصة غلالة رقيقة صفراء، وملاءة مصقولة وكان لا يسمح بدخول أحد عليه أثناء السّمر والغناء.

يدل هذا على أن موجة من المتعة والمجون طغت على عدد كبير من النّاس في الكوفة. وقد روى أنه لما خرج ابن رامين إلى مكة للحج بجواريه بكى الشّعراء بكاءاً مراً لخروجه ووصفوا لوعتهم من فرقة مجلسه.

وقد نظم محمد بن الأشعث قصيدة يصف خروجهن إلى مكة ويصف لوعته وحزنه على فراق الجواري[5]. ومن ذلك قوله:

أية حال يا ابن رامين
حال المحبين المساكين
تركتهم موتىٰ ولم يتلفوا
قد جرعوا منك الأمرين
وسرت في ركب على طية
ركب تهام ويمانين
يا راعي الذّود لقد رعتهم
ويلك من روع المحبين
فرقت جمعاً لا يرى مثلهم
بين دروب الرّوم والصّين

وفي بداية الدّولة العباسية بيعت جواري ابن رامين وانتقلت سلامة الزّرقاء. وهي أشهر جواريه إلى محمد بن سليمان بن العباس[6]. وكانت حظية عنده.

(١) الأصفهاني: الأغاني جـ١ ص١٤٦.
(٢) الأصفهاني: الأغاني جـ١ ص١٤٦، جـ٢ ص١١٨، ١١٩.
(٣) الأصفهاني: الأغاني جـ١٢ ص٧٨، ٧٩.
(٤) الأصفهاني: الأغاني جـ٢ ص١٢٠.
(٥) الأصفهاني: الأغاني جـ١٣ ص١٢٢.
(٦) الأصفهاني: الأغاني جـ١٣ ص١٢٨.

الأعياد:

يحتفل المسلمون في الكوفة شانهم شأن المسلمين في كل مكان بعيدي الأضحى والفطر، وكان الأمير في الكوفة يخرج لأداء صلاة العيدين في المسجد مع بطانة في موكب رسمي مهيب تحيطه الحاشية، وعليها ملابس مزركشة وخلفه وأمامه الجند يحملون الأعلام والسّيوف وتنحر الذّبائح في عيدي الأضحى وتوزع على الفقراء الهدايا والصّدقات. ويتزاور النّاس فيما بينهم ويتهانون ويهنئ كل واحد الآخر بالسلامة والصحة والدّعاء له بزيارة مكة وقبر الرّسول.

ويحتفل الكوفيون أيضاً بعيد النّوروز وهو أول أيام الرّبيع وهو من الأعياد الفارسية المشهورة. وكان لهذا العيد مظاهر معينة، حيث كان سكان المملكة السّاسانية يهدون فيه الملك هدايا كثيرة من المال كانت تبلغ الملايين. كما أن الملك فيه يهدي إلى قواده الخلع والهدايا.

واحتفلوا بعيد المهرجان ويقع في أول أيام الشّتاء وهو من الأعياد الفارسية أيضاً التّي يتهادون النّاس فيه الهدايا كما يتهادون في عيد النّوروز، وكان القواد ورجال الخليفة تخلع عليهم فيه ملابس الشّتاء، وكان النّاس يعيرون فيه الفرش والآلات والكثير من الملابس[7].

كما أن الرّعية كانت تقدم إلى السّلطان هدايا مالية كبيرة. ولما جاء العرب أوقفوا تقديم هذه الهدايا واعتبروها مخالفة للإسلام،ولكن هذه الرّسوم ظهرت مرة أخرى في عهد عثمان بن عفان حيث طالب الولاة والأمراء أن يقدم الشّعب لهم الهدايا فضجّ النّاس وحمل عثمان على إبطالها[8].

ولكن أعيد تقديم الهدايا في هذين العيدين في عهد معاوية فكان أهل السّواد يقدمون إليه الهدايا المالية الكبيرة حتّى بلغت هدايا النّوروز، والمهرجان في العراق فقط في عهد معاوية «مائة وعشرون»[9] مليون دينار ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة أمر بإبطال هذه الضّريبة[10]، ولكن الخلفاء الذّين أعقبوه ظلوا يجبونها في العراق وغيره من الأقاليم.

ولا ننسى أعياد الزّواج وقد كانت هذه الحفلات من أشهر الأعياد في الكوفة، فكانت تقام الولائم وتنصب الموائد وكانوا يدعون إليها البارزين من قومهم بالإضافة إلى أهل العروسين. وكان العامة من النّاس يحاولون في هذه المناسبات أن يظهروا بمظاهر الغنى فكانوا يستأجرون الزّينة والآلات والفرش[11] أو

(٧) الثعالبي: يتيمة الدّهر. جـ٢ ص٥٨.
(٨) الصّولي: أدب الكتاب ص٢٢٠.
(٩) اليعقوبي: التّاريخ جـ٢ ص١٩٤، الجهشياري: الوزراء والكتاب ص١٥.
(١٠) أبو يوسف: الخراج ص٤٩.
(١١) الأصفهاني: الأغاني جـ٥ ص١١٩، آدم متز: الحضارة الإسلامية ص٢٩٥.

يستعيرونها من أقاربهم أو أصدقائهم وتقام في هذه الحفلات مجالس الغناء والطّرب[١].

وعيد الختان وكانت تقام في هذا العيد ولائم لإطعام النّاس وسميت هذه الولائم (الأعذار)[٢]، وكان النّاس لا يختنون أولادهم منفردين وإنما جماعات، وإذ كان الرّجل لديه ابنٌ واحدٌ فإنه يختن معه عدداً من اليتامى وتنثر الحلوى والنّقود على رؤوسهم كما توزع الكسوة للفقراء والمحتاجين.

وكانت لأهل الذّمة لا سيما المسيحيون منهم أعيادهم الكثيرة التّي يحتفلون بها منها:

عيد الميلاد (أو عيد البشارة)، ويعنون به بشارة غبريال وهو (جبريل على زعمهم) لمريم بميلاد (عيسى) يعملونه في التّاسع والعشرين من (برمهات) من شهور القبط[٣]. وفي هذا العيد كان النّصارى يزينون كنائسهم ويوقدون فيها الشّموع ويلبسون فيها أجمل الملابس وأبهاها كما يقومون بالتّزاور فيما بينهم ويغمسون أطفالهم في النّهر في عيد التّعمد رغم شدة البرد[٤].

وعيد الزّيتونة: وهو عيد التّسبيح يعملونه في سابع أحد من صومهم وعاداتهم أن يخرجوا بسعف النّخيل من الكنيسة وهو يوم ركوب المسيح للحمار في القدس[٥].

وعيد الفصح وهو العيد الكبير عندهم يقيمونه يوم الفطر من صومهم الأكبر[٦].

كان اليهود يحتفلون بعيد رأس السّنة اليهودية ويسمونه (رأس هيشا) كما يحتفلون بعيد الصّوم العظيم ويسمونه (صوماريا) ومدته خمس وعشرون ساعة[٧]، وعيد المظال، ومدته ثمانية أيام يجلسون فيه تحت ظلال النّخيل وأشجار الزّيتون، وسائر الشّجر ويزعمون أن ذلك تذكار منهم لإظلال الله لهم في التّية بالغمام[٨].

وعيد الفصح أو الفطر ومدته سبعة أيام يأكلون فيها الفطير وينظفون بيوتهم فيها من خبز الخمير، ويعتقدون أن في هذه الأيام خلص الله بني إسرائيل من يد فرعون وأغرقه، فخرجوا إلى التّية فجعلوا يأكلون اللحم، والخبز والفطير وهم بذلك فرحون، وفي إحدى هذه الأيام السّبعة غرق فرعون[٩].

(١) الأصفهاني: الأغاني جـ٢ ص١٢٠.
(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ٦ ص٢٩٢.
(٣) القلقشندي: صبح الأعشى جـ٢ ص٤١٥.
(٤) القلقشندي: صبح الأعشى جـ٢ ص٤٦١، تريتون: أهل الذّمة ص١٢١.
(٥) القلقشندي: صبح الأعشى جـ٢ ص٤١٥.
(٦) القلقشندي: صبح الأعشى جـ٢ ص٤١٥.
(٧) القلقشندي: صبح الأعشى جـ٢ ص٤٢٦.
(٨) القلقشندي: صبح الأعشى جـ٤ ص٤٢٦، ٤٢٧.
(٩) القلقشندي: صبح الأعشى جـ٢ ص٤٢٧.

حلبات الخيل:

كان سباق الخيل عند العرب تسلية شعبية لكافة طبقات المجتمع فكانت هذه اللعبة تحظى بحب واعتزاز كبير من النّاس، وكانت الصّحراء مدرسة طبيعية لتّعليم فنون الفروسية وسباق الخيل. وكان العرب ينقلون هذه اللعبة معهم حيثما يحلون وكانت تجرى هذه السّباقات بصورة عامة في الأعياد والمناسبات العامة في أرض فسيحة وقد أقيمت لها الحلبات الواسعة وأصبحت لعبة لها ما يميزها عن غيرها من الألعاب.

وقد نال سباق الخيل هذا اهتماماً كبيراً عند خلفاء بني أمية فذكر المسعودي أن هشام بن عبد الملك كان أول من أقام حلبات الخيل كما اهتم بتحسين نسل هذه الخيول، وقد اشترك في السّباق في عهده نحو أربعة آلاف من خيله وخيول الآخرين ولم يسبق هذا السّباق مثيل[١٠]. وفضلاً عن ذلك كانت أميرات البيت الأموي يتدربن على ركوب الخيل ويشتركن في السّباق[١١]، كما أن الوليد الثّاني كان محباً للخيل مغرماً بها. قال المسعودي: «كان الوليد مغرماً بالخيل وأحبها وجمعها وأقام الحلبة»[١٢]. وكان لدى الوليد حصاناً اشتهر في ذلك العصر يسمى السّندي.

وكان الوليد يحضر حلبات الخيل ليشهد السّباق مع عدد كبير من الأمراء وكبار الدّولة وكانت (رصافة الوليد) مسرحاً لسّباق الخيل. وقد انتقلت هذه الحلبات إلى بقية الأمصار الإسلامية ولا سيما الكوفة، وقد أقام ابن هبيرة فيها حلبة للسّباق. وقد شغف أهل الكوفة بالمراهنة عليها.

* * *

(١٠) المسعودي: مروج الذّهب جـ٣ ص١٣٩.
(١١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السّياسي جـ١ ص٤٤١.
(١٢) المسعودي: مروج الذّهب جـ٣ ص١٥٠.